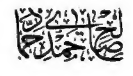
نحن والرقي

تأليف





١٣٢٤ هـ — ١٩٠٦ م

مطبعة مدرسة والدة عباس الأول

(بالطرقة الشرقية بشارع خيرت بالقاهرة)

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم ﴾

أما بعد فهذه رسالة قد جمعت فيها اشياء مما حضرني فيما يتعلق باحوالنا الارتقائيةالعصريه في الاخلاق والادآب والمسائل الاجتماعية والاقتصادية والعلم والمعرفه الى اشباه ذلك. ولقد كان في العزم نشرها تباعاً في جريدة المؤيد الغراء خدمه عمومية بل وقد نشر الفصل التمهيدى منها بالفعل في العدد ٤٧٦٩ الصادر في ١٣ ذى القعده سنة ١٣٢٣ و١٨ يناير سنة ١٩٠٦ من تلك الجريدة غير انه قد حالت حوائل من الاعذار دون اتمام هذا الصنيع والعدول بها عنه الى طبعها مباشره على حده في هذا الكتا ب قاصداً بذلك ما قصدت اولا من محض النفع لبني قومى فارجو كل مطلع عليها منهم ان يسبل ذيل الستر على ما يرى فيها من عيب أو خطأ خصوصاً والبحث ما زال عندنا جديداً وعميقاً يختلف فيه النظار باختلاف الانظار والوجهات وما العصمة والكمال الا لله الواحد المتعال

القاهره في غرة محرم الحرام سنة ١٣٢٤ صالح حمدي حماد

١

﴿ تمهيد ﴾

عناصر الامه — الاسباب — اختصار بحثي — كيف قسمته — افضل طريق فى الارشاد — الاصلاح الذاتي — نصيحة ذهبية لجناب اللورد كروس

تتألف الأمة المصرية الحديثة من عناصر كان لها فى التاريخ البشري والتمدن الانسانى منذ نشأته القدم الراسخة والمكانة العالية. فالعنصر المصري أو القبطى القديم الذي يتركب منه شطر عظيم من الأمة الآن بصرف النظر عن الدين والملة اسلامية كانت أم مسيحية هو ذلك الشعب المصري الكريم الذي بلغت شهرته القديمة فى التمدن والحضارة والعلوم والمعارف البشرية الى أبعد المدى رقياً عقلياً وعظمة مادية وكفاه فخراً انه كان ينبوع العلوم القديمة ومشكاة المعارف التالدة وأستاذ أمثال أمة اليونان القديمة ذات الصيت الكبير والسمعة العظيمة فى الحكمة والفلسفة.

والعنصر العربى وما التحق به المتمم لكيان الشعب المصري الحالى كان له أيضاً عظمة كبيرة تاريخية فى بلاد العرب قديماً

كملت له على أتم صورة واكمل شكل في العصور الاسلامية اللاحقة لا سيما أبان ازدهاء التمدن الاسلامي الجليل فى كل من « بغداد » و « قرطبه » و « القاهرة » و « دمشق » تلك الاوساط الرئيسة لذلك التمدن العظيم الذي ساد العالم حقبه من الدهر كانت اوروبا أو بالتالى التمدن الغربى الحديث فى خلالها في طي الخفاء أو الدخول فى دور التخمير فالتوليد بفضل توسط ذلك التمدن الاسلامى نفسه .

ومهما يكن من الاسباب العظيمة التي أناخت على هذه البلاد وغيرها من أقطار الشرق الاسلامية فسلبت أهلها شيئاً فشيئاً نعمة الرقى الصحيح وألبستها ثوب الخمول والجمود دهراً طويلا تلقاء تلك الاسباب الاخرى الجليلة التى رفعت شأن أمم الغرب بعد ان كانوا برابرة متوحشين واكسبتهم ذلك التمدن الحديث العظيم فلا شبهة اننا في ظروفنا الحالية — والمرء أين يومه — بحكم الدور فى التاريخ وبواسطة الاستمداد بنوع ما من التمدن الغربى الحالى في أشيائه النافعة والخلطة بأهله قد يمكننا أن نزاحم على مورده العذب ونعيد لأنفسنا شيئاً من الرقى الصحيح يسلك بنا أو نسلك به طريقاً وسطاً في مدارج

الارتقاء الذاتي ومعارج الحياة الطيبة لشدة افتقارنا الى ذلك بين تلك الأمم النشيطة العاملة بالجد .

وهذا ما أريد أن أبحث فيه هنا بهذه الفصول وقد جمعت فيها بعض الشيء من أشيائه المختلفة على عجل كذلك المصور الذى قد تلجئه الضرورة الى التمهيد لما يريد أو يراد رسمه وتصويره من الصور المهمة فيبدأ اولا بعمل «الصورة الاولية» تاركا استيعاب الدقائق والاستغراق فى التوسع الى سنوح الفرص من الوقت ومهارة اليد أو لمن يكون أمهر منه يداً أو اتقن فى الفن .

ولقد قسمت هذا البحث الذى أمهد له بهذه السطور الى عدة فصول هى وان ارتبط بعضها ببعض لكننى قد خصصت لكل فرع من حلقات سلسلتهما التى أريد الخوض فيها على انفراد فصلا موجزاً منفرداً ومقالا صالحا مختصراً طلباً للسهولة وتحريا للايضاح ولقد ختمت البحث كله بخلاصة هي كالنتيجة له أو هى هى .

على ان هذا البحث أو هذه الرسالة التى اخدم بها العموم هنا وان قصرت على السطحيات أو البسائط دون ما يستحق

الموضوع من كبير العناية وعظيم الدقة والتعمق لحسبي ان المقام — فضلا عن قلة البضاعة وتفاهة المادة — قد قضيا على بذلك تاركا الى كبار علمائنا المصريين كبريات مسائله وامهات قضاياه تلك القضايا الحيوية العمرانية التى تستحق عظيم التفاتهم وكبير اهتمامهم طلباً لنفع الامـة وحرصاً على كل ما يؤول الى رقيها الذاتى وسعادتها مادياً وادبيا .

ولعمر الحق ان هذا الطريق في الارشاد المصرى والنصح الواجب هو ما يلزم طرق بابه وانتهاج نهجه بشرط ان يكون سالكا صاحبه سبيل العقل والحكمة غير راكب متن الشطط والتطوح لان الامة قد اضحت الآن فى دور هو الى مراعاة جانب التوسط والاعتدال المبنى على العقل والتؤدة والتوفيق بين كل العناصر المؤلفة منها أحوج منه الى أى شيء آخر اختياراً للافضل وانتهاجا للاحسن فى مناهج السلوك بين الامم ومن يقل غير ذلك من أى ملة أو نحلة كان فقد ركب متن الشطط وغرر بالعقول وتلاعب بالانفس وليس ذلك بالامر اليسير ان قبلته الامة أو بعض اهل السذاجة منها اليوم فهى ولا شك رافضة له غداً .

ومجال القول في الاصلاح الذاتى من ناحية الامة لنفسها واسع جداً ودائرته فسيحة للغاية لا يحتمل عبئها غير الفئات الكثيرة من عقلاء الامة ونبهائها على اختلاف المشارب ونحن في اشد الحاجة الى ذلك خصوصا فى هذه العصور التي اضحينا بها فى اخريات الامم وترمى بيننا بالانحطاط وما ذلك إلا لأنا بسوادنا الاعظم لا نرتكن إلا على سفاسف الامور وتافهات الاشياء ولا يعرف جهالنا غير التشدق الفارغ باسم الدين والتعصب الكاذب لما يبرأ الله ورسوله والانسانية وبنوها منه وهذا كله في الحقيقة معطل للاصلاح الذاتى الآمر به الدين والذى عليه كل رقى وبه كل نجاح والذى يقول فى مثله المأسوف عليه العالم الجغرافي اليزه ركلوس ما محصله « وتحقق لنا طائفة من الحوادث المتعلقة بالبحث عن الانسان في جميع الادوار وكل البلدان ان لا نشؤ ولا رقى فى وجود الأمم يمكن ان يتم امره ما لم يكن نتيجة العمل الفردى والسعى الذاتى »

وهذه الحقيقة قد ادركها كل فضلائنا وكبرائنا ولطالما حث عليها وطرق ابوابها الكثيرون فهم منذ ان وجدت الالسن سبيل القول فيها مفتوحا بواسطة الجرائد السيارة . ولقد قال

جناب اللورد كرومر نصيحة ذهبية لنا معاشر المصريين فى ختام تقريره عن عام ١٩٠٣ هذا نصها « أن كل ما يسهل على المصريين السلوك فى سبيل التقدم الادبى قد يسر واصبح قريب المنال منهم وهذا جهد ما تستطيعه حكومة ولا يمكن لحكومة ان تصنع اكثر منه فبقى على المصريين انفسهم ان ينتهزوا هذه الفرص ويتقدموا التقدم الادبى »

فالشأن اذن من الجميع مطلوب والامر لدى الكل محبوب ما دام غير خارج النداء به عن جادة الشرع المشروع والنظام الموضوع وبالتالى مادام غير نادٍ هو عما يقضي به العقل ومراعاة جانب الحكمة والصواب والذوق السليم والله يتولى هدى الجميع

٢

﴿ مواضع ضعفنا ﴾

كيف تموت الامم — اسباب امراضنا وما اريد من نتائجها — عقل المصري أو الشرق — مواضع الضعف الحاليه الموروث منها والمكتسب — لا اعتداد بقول من طعن على الاقليم ورمي الدين — شهادة المستشرق جاله.

لقد صدق من شبه حال الأمم بحال الافراد من حيث ما يعترى اجسامها من القوة والضعف والصحة والمرض

بصرف النظر عن فرق ما بين طبيعة تلك الاحوال واختلافها
فى الشعوب عما هى عليه عادة فى الافراد والنتائج التى تليها .
فما تحيا به الأمم قد يباين بنوع ما ما تحيا به الأفراد كما وموت
هؤلاء المبنى على الاندثار والتلاشى الذاتى ليس هو كموت
الشعوب الذى وان كان على ما يقصد به هنا معنويا فى جملة
تطوراته وتغير صوره لكنه فناء حقيقى فى جوهر امره للقاعدة
المشهورة من بقاء الاجناس والانواع وان تلاشت الافراد
وتغيرت الاشخاص فمن ثم كان يونانيو اليوم غير يونانى الامس
ومصريو الامس ليسوا بمصريّ اليوم .

ولا خلاف بين اثنين الآن خبرا الامور واستكنها سر
الاحوال ان الامة المصرية وبعبارة أخرى كل الامم الشرقية
الاسلامية مصابة بمرض عضال وداء دوى من الضعف العام
والفتور الجسيم والفساد الطارىء الكبير كانت فى جملتها نتيجة
عوامل اجتماعيه عظيمه شديدة الوطأة والضرر تسلطت على
تلك الامم في قرون كثيرة متواليه يرى البعض انها قد أودت
تماما بحياة تلك الامم الطيبة واذهبت ريحها ويرى فريق آخر
أنه لم يزل هناك بقية أمل كبير في نوال العافية وشفاء تلك

الاسقام تدريجاً بقدر ما تسمح به الظروف الحالية وتقتضيه تغيرات الاحوال اللاحقة .

وليس من غرضي أن أفصل هنا تفصيلا دقيقاً تلك الاسباب والعوامل التى كادت تودى بحياة الشعوب الشرقية والشعب المصرى منها على الخصوص فهى كلها متقاربة متجانسة فى الشكل والصورة والمصدر من فساد الاحكام وكثرة توالى الفتن والاحن على صور غريبة وأشكال مريعة مما قد تكفل التاريخ البشري باستيعاب حوادثه واحصاء مظاهره جيلاً فجيلا وعصراً فعصر . ولاغروفالتاريخ كما يقال مرآة الحوادث والفانوس السحرى للعبر وتقلبات الامم وتغيرات الشعوب سواء في النظامات السياسية والعوائد والاخلاق أو فى الحركة الفكريه والصناعيه فمنه وحده يستبان جلياً مثلاأن ليس عصر «المماليك» كعصر «الفاطميين» ولاعصر «الرمامسة» من الفراعنه الاول كعصر حكومة «الرومان» التى تلاها الفتح الاسلامي.

وانما الذى أريد أن اذكره أو أعدده بالايجاز هنا هو بعض النتائج السيئة التي خلقتها تلك الاسباب أو العوامل الاجتماعية واثرت بها فى سبيل رقيها رقياً صحيحاً وقلة نجاح أفرادها نجاحا

باهراً فى مهام الحياة العصرية إزاء غيرهم من ابناء الشعوب النشيطة ومايقال ويوصف لذلك من أنواع العلاج البسيط ووسائل التطبيب القريبة المنال .

ظواهر انحطاطنا ومواقع ضعفنا في الجهاد فى الحياة السعيدة الصحيحة كثيرة يراها كل مستبصر متتبع للحوادث الراهنة ومجريات الشؤون الادبية والاحوال الشخصية حتى قال بعض علماء الاوربيين أن عقل المصرى أو الشرقي له حد محدود يقف عنده فى النمو والارتقاء ولايتخطاه بعد دور المدرسة أو التعليم الا قليلا بعكس الاوربى الذي يكون عنده ذلك الدور كواسطة فقط لما بعده من الادوار فى الحياة فاذا جاوزه انفسح أمام عقله المجال فعمل بالجد والنشاط الادبى الى نهاية العمر أو على الاقل الى زمن الشخوخة وسن الهرم الذى هو بطبيعه عادة الحكم الفصل للقوة الفكرية كالقوة العضلية وبدء دخولها مثلها فى دور الدثور وطى الخفاء والفناء سواء على رأى قدماء الفلاسفة ومتابعيهم القائلين بان عارض التقصير العقلى فى زمن الشيخوخة وأمثالها ليس لضعف جوهر العقل نفسه بل لان أجزاء البدن قد صارت غير قابلة لعمله على التمام أو على مذهب

مخالفيهم من المتأخرين الذاهبين الى ان لا استقلال بين العقل والبدن وان فعل الاول هو نتيجة الفعل الميكانيكى والكيماوى للثانى وانحطاطه تابع لانحطاطه .

انا لست هنا في مقام التفنيد لفساد زعم من يرمى الشرقيين او المصريين بهذه الخطة وتلك النقيصة ولا آت بالشواهد على بطلانها بذكر الاشخاص ممن نبغوا فى العصور المتأخرة خصوصا من الشرقيين بل اجعل كلامي الى العموم من بني قومي فاقول لماذا نرمى بهذا العار وتلكم الوصمة الشنيعة ؟ أليس هذا لان كثيراً من امورنا العقلية الادبية والعملية المكشوفة تكاد لغلبة قصورها وقلة سدادها وعدم تناسبها لتفاهة مادتنا العلمية والعملية ووسطنا المتقاعس المتلاهي تحسب علينا من هذا القبيل من الجمود والخمود الفكرى والعقل المحدود في الامة كما يقولون ؟

ثم واذا اضفنا الى هذا الجانب الضعيف فينا ذلك الجانب الآخر التابع له والمسبب ولا ريب عنه من كبير اهمالنا وتثاقلنا وقلة اكتراثنا بما حصلناه واستفدناه من الامور العلمية والعملية من حيث عدم ايفائها حقها من التطبيق والتحسين والتجديد مما يعبر عنه بالحنكة الفنية والنشاط العقلى الذاتى للعمل ابداً

بالاحسن في الحياة وتحرى الاجود من الامور الارتقائية على الدوام كان لنا من ذلك سببان قويان من اسباب ضعفنا وعاملان عظيمان للحط من شأننا والانقاص من حظنا وسعادتنا في مهام الحياة الحقيقية .

وليس هذا كل ما يعلم أو نعلم نحن من مواضع ضعفنا ودواعي تأخرنا في هذا الصدد فان لوسطنا العملى المتقاعس خصوصا تلك المساوىء الاخرى التابعة لذلك والملحقة به بطبيعة الحال الاجتماعى الذى نحن عليه كشهرتنا بقلة الحزم والعزم وعدم الاعتداد بالنفس والتخاذل وتفكك الروابط الاجتماعية والعائلية ونقص مادة المعرفة والخبره الدنيوية الموجبة لصحة الاحكام وجودة الرأى العام فى الامم . فهذه واشباهها من نقص الصفات الادبية تعد في مصاف تلك العيوب المهمة المعوقه للامة في مناهج الرقي العقلى الادبي وبلوغ ذلك الشأو العالى فى الحضارة العصريه وان شئت فقل في جوهر الحياة الحقيقيه وسعادة النفوس فيها لا بتلك المظاهر الكاذبه والامور الفارغه مما منينا به فوق ذلك مما جعل لبعض الالسن الغريبه التى كلها عيون تبصر وعقول تنتقد لاحوالنا المكشوفه جراة

وتطاولا لان تسمى المصرى معه « طربوشار » دلالة على
احتقاره في عمله وادبه وسلوكه غير المنتظم خصوصا

ان اسباب ذلك كله من معائبنا الحاليه إما قديمه للتاريخ
كما تقدم الحكم فيها وسرد جرائرها وحوادثها المدلهمه من
فساد الاحوال ورداءة الاحكام وكثرة الفساد الطارئ على
الوسط الادبي بالرغم عن جودة الشرائع ومرامي غاياتها الشريفه
من استطلاح حال العمران واقامة قسطاس العدل بين الناس
وإما حديثه وبالتالى متجددة بالتقليد والاكتساب الموروث
بنوع ما عن الاباء والجدود وجدودهم خصوصاً ممن أبتليوا
بالوقوع في حمأة تلك العصور وانحطاط تربيتها وفساد احوالها
على انواعها فملأت ادمغتهم رهباً وارهقت نفوسهم وعقولهم
تعباً انتج لهم خلالا وصفاتاً ادبيه كانت لهم بنوع ماكما سيأتي
مزيد إيضاحه وبيانه عونا فى الحياة بأزاء تلك المجريات القسرية
ولكنها صارت علينا نحن بالضد من ذلك سواء فى اعمالنا وامورنا
الادبية او في افكارنا وارائنا العمومية . فهذه الصفات المتولده
الباقيه بصورة ما الى الآن هى التى يجب علينا العمل لاصلاحها
من ذواتنا وخلع نيرها عن رقابنا وبالتالى مساعدة عوامل الرقى

والنظام العامله فى إصلاحها وتغيير حالنا فيها بواسطة التثقيف والتعليم واستجادة تربية الذراري سيما تربية تناسب روح العصر

أما ما يقال عن أقليم هذه البلاد ودينها الاسلامى الحنيف فلا اعتداد به لان الاقليم مازال واحدا مع الامة المصرية الحديثة كما كان مع تلك القديمة لا تأثير له الا فيما هو من خصائص الاقاليم العريقة في التمدن خصوصاً من حيث التميز بين الامم فى اشياء خصوصية من الامزجة والتطورات الطبيعيه والاخلاقية غير قاطعة في القوى الادبية والعقلية ومبادئهما العامة المستفادة من الاذواق البشرية الكريمة والمعارف الانسانية المنتجة النتائج الواحدة فلو ربيت أمة متمدنة تربية أمة أخرى أرقى منها وأتيح لها من عوامل رقيها العلمية والادبية لشابهتها بنوع ما فى النتائج بصرف النظر عن خصوصيات اقليمها وتقاليدها الراسخة كما هو شأن الامة اليابانية الحديثة النشأة من الظهور بهذا المظهر الجميل في التمدن العصرى.

أما الدين وما يطعن به على أهل الشرق من أجله مما لا نصيب له فى الحقيقة الا مخيلة قائليه إما تعصبا أو بناء على الاستقاآت السطحية والاستقراآت القريبة التماساً لعلل الشرق

والشرقيين أو الاسلام والمسلمين مما قد يعذر فيه جماعة علماء
الغرب النشيطين العاملين في معرفة كل شيء ونلام نحن عليه
لتقاعسنا وأهمالنا كل شيء حتى تسرب الى عقائدنا وأشيائنا
الدينية أمور وأشياء من الخلط والحشو حسبت من الدين
الحنيف فجعلت لتلك المغامز مدخلا مما لا التفات اليه الا من
هذه الوجهة والا فالدين الاسلامي كما يشهد به الوجدان
الصحيح والتمحيص الجيد الدقيق في مبادئه السامية ما وضع
الا لخير الانسانية وبنيها فعمله الحق والصواب واحد ونتائجه
كذلك واحدة في كل زمان ومكان وما لحقه العيب على طول
المدى الا من الاشخاص وما جروا عليه ودسوا فيه من الاوهام
تبعاً للاغراض والاهواء والظروف كما سيأتي مزيد بيانه

هذا ولقد أوردت الاهرام الغراء في بعض فصولها
الافتتاحية في شهر دسمبر الماضي بعد أن سردت ماين منه
عقلاء الشرق عموما من مساوىء ماعليه أبنائه على أختلاف الملل
والنحل من هذا القبيل حكمة بالغة للكاتب المستشرق «جاله»
الشهير أراها من خير مايستشهد به في هذا المقام وأفضل مايختم
به هذا الفصل قال ذلك الكاتب المستشرق :

« درست طويلا حياة الامة العربية والامم الشرقية التى اكتسحت فى اقل من نصف قرن البلدان وثلت العروش وقوضت أركان الممالك فعرفت ان الامم التى فعلت تلك العجائب لم تفقد مزاياها ولم تضعف قوتها وقواها فهى أصح أجساما من كل الامم وأحكم دماغا من كل الشعوب ولكن ذلك الهيكل المتين وذلك الدماغ السليم قد شغلا بشياطين الخرافات والاوهام فانكمش الشرق على نفسه وأختبط فى صدره فخقر وانحط وضاع وذل فاذا طردت منه تلك الشياطين العابثة فيه هز مناكب الاكوان بقوته وافترع حزن العلوم بهمته وأرانا من عجائبه فى الآتى أكثر مما رأيناه منه في الماضي »

٣

﴿ نقائصنا الأدبية ﴾

كيف تتكون العوائد والاخلاق من المحسوسات — العقل وسلطانه ومايقدر عليه في الدفع — ضرب مثل للمجتمعات البشرية — الطفره محال لكن يجب العمل لازاله الاخلاق الرديئة — التربيه وروح النظام — حكمه لشاعر اعجمي

تؤدي المشاعر الى النفس أو المجموع العصبي كل محسوسات الاشياء ومدركات الامور الانسانيـة والحوادث خصوصاً

فتنطبع صورها فيها بنوع ما وتتأثر بها بصفة عجيبة وللعقل
وسلطانه القوى من وراء هذا وذاك الحكم فيها بالقبول أو الرد
طرداً وعكسا فاذا دامت هذه الحوادث الاجتماعية خصوصاً
المحدقة بالانسان وتوالت صارت عوائداً للنفس ومألوفات
للطبع فان كانت أموراً وبالتالى فعالا جميلة وخلالا حكم العقل
بحسنها والوجدان بصحتها كان ثم مرتاحا لها متلذذا متنشطا
على الدوام لقيام النفس والاعضاء بها واعتيادها واذا كانت
قبيحة مسترذلة خالف النفس فيها أولا فأولا بمقدار ما ربى
عليه وانغرس في طبعه من أصول الفضائل النفسانية والآداب
الانسانية تارة بالتوبيخ الوجدانى وتارة بالفعل الجبري والحكم
القسرى فان وجدها فوق طاقته ومن غير مقدور ذاته أو
توالت عليه لدرجة اليأس والقنوط من أمكان ازالتها سواء
كانت آتية من الخارج أى بحكم الوسط أو من الداخل أي
بواسطة دافع النفس استكان لها حينئذ واستنام على كره منه
مع ذلك غالبا فيتعود بحكم الضرورة التماس المخرج لسلامة
نفسه والاستمانة على بقاء حياته أو ملذاته بضروب من الحيل
والصفات الرديئة مما يماثل تلك الحوادث أو تستلزمه هى من

العوائد والاخلاق الذميمة لاسيما اذا ساعد على ذلك فساد
الوسط الاجتماعى وتخييم الجهل على العقول فبدوام تلك الاحوال
وتواليها تصير طباعا للنفس يقدم الانسان على اتيانها وغشيان
أشيائها بدون كلفه اواكتراث لأمتلاء دماغه منها وتأثر مشاعره
بمواملها المعتادة له فتصير كالطبائع والغرائز النفسانية تحجب
الاصول الأدبية الطيبة المغروسة فى النفوس من أصل الفطرة
أو التربية او الاصول الدينية بحجب كثيفة وغشاوات يا لها
من غشاوات .

هذا هو بنوع ما سبيل نشأة العوائد والاخلاق بضميمة
الاعتبارات الاخرى من مكونات العلم والتقليد في الامم
والافراد مليحها كقبيحها على العكس مما تقدم آنفاً . على انى
للتقريب الذهنى فى اسباب جودتها في المجتمع السليم الاحوال
المستقيم العود وردائتها فى المجتمع الفاسد الشؤون المعوج الظل
تبعاً لاعوجاج العود وما اعنى به الا المؤثرات الاجتماعية الكبيرة
لهيئة الحكم والاحكام أضرب لك مثلا عنها برجلين لكل منهما
إزاء الآخر المزارع الواسعة والاملاك الفسيحة فيها الالوف
من الزراع والصناع والخدم والحشم لكن احد هذين الرجلين

تهيئت له الاسباب الكثيرة لان يكون حكيما عادلا ومدبراً حازما فدبر الامور بالعدل وساس الشؤون بالحق والرفق فكان نصيبه النماء فى الثروة والهناء والراحة فى نفوس كل عماله واتصافهم بكل الخلال الكريمة والفضائل الجميلة من الصدق والاخلاص والثقة بالنفس والاطمئنان والنشاط والغيرة والتعاون بالبر الى اشباه ذلك

وكان الآخر على عكس ذلك سفيها متغطرساً وشرس الطباع طماعا فكان حظه قلة البركه فى الثروة وتعود معاملة كل عماله وخدمه وحشمه له بالكذب والرياء والخديعة الى غير ذلك من الصفات الذميمة والمساوئ والنقائص الأدبية لما انهم قد رأوها فى الغالب الانفع لبقائهم معه والاصلح لكسب العيش ثم

هذا هو بنوع ما مثل المجتمع الانسانى الحسن النظام الجيد الاحكام المنتج أو المقوى لاحسن الخلال البشرية واكمل الصفات الادبية في الامم . ومثل ذلك المجتمع الآخر الفاسد الاحوال الردئ الاحكام الذى يؤثر بأحواله المعكوسة على اخلاق الشعوب فيفسدها ويمسخها بحكم الضرورة مسخاً مشيننا الى حين ما .

وهذا الشكل الاخير للهيئة الاجتماعية وان كان قد منى
به على ما ينبئنا التاريخ اكثر امم الارض وشعوبها بين قديمة
وحديثه الا ان امده الذى له حكم التأثير الكلي فى الطباع
والعقول وتغيير حال الانفس والتأثير أو الضغط على فضائلها
الانسانية لم يطل فى الغرب خصوصاً لدى الامم الحديثة الافرنجية
والجرمانية وفروعها التى أخلفت الدولة الرومانيـة وأقتسمت
أوروبا وأكبستها التمدن الحالى بمقدار ما تراخى حبله واستطال
امره وكثرت تغيرات حاله مثلا فى الشرق فأورث اهله بضميمة
الاعتبارات الاخرى التابعة لذلك كثيراً من الصفات الشائنه
والنقائص الادبية والعقلية التى بدأت اليوم مثل الامة المصرية
وغيرها من الامم الشرقية الكريمة تشعر بثقل وطأتها واستهجان
أمرها فيها لان امثال هذه الخصال الرديئة لما كانت غير موجودة
من أصل الفطرة فى تلك الامم فضلا عن مناقضتها لمبادئ
دينها القويم واصول مدنيتها واحوالها الاجتماعية القديمة وإنما
طرأت بطرؤ ذلك الفساد اللاحق بالهيئة وكثرة الفتن والاحن
على ما تقدم لذلك كانت كالاعراض المرضية التى يلتمس زوالها
ويرجى انقطاعها اذا ساعدت الظروف ما دامت قد انقطعت

مادة اسباب تلك الاوضار وجرثومتها

ولرب قائل يقول — لكن ما بالنا بالرغم عن زوال تلك الامراض ومسبباتها بتغير السلطة الاستبدادية الشديدة الوطأة بالحكومة المنتظمة العادله خصوصا فى هذا العصر عصر مولانا العباس أعز الله سلطانه مافتئت نقائصنا الادبية ورذائلنا الشائنه فاشية متسلطة على النفوس في الامة لدرجة عظيمة تعد نتائجها الجنائية وجرائرها القضائية بالألوف وعشراتها كما تشهد به التقارير الرسمية عن المحاكم واحصاآتها الدقيقة — قلت هذا حق وصدق يجب على كل فرد منا تلقائه ان ينفض غبار عاره عن الامة باستصلاح حاله وتقويم اوَد نفسه لان الحال قاض به كما قضى على بعض النفوس قديماً بأحوالها السالفة اضطراراً. على ان بقاء تلك البقية الباقية من نقائصنا الادبية مع انحصارها فى الطبقات الجاهلة النازلة خصوصاً لايمكن ان تزول دفعة واحدة بل هى معللة بالاكثر بما تعلل به ادوار النقاهة التدريجية في الامراض الطبيعية (وبعض الفلاسفة يجعلها بنوع ما منها) التي طال امدها فان لها في ادوار هذه النقاهة ثورات وتطورات بل وردود فعل شديدة تنقطع بعدها رويداً رويداً الى ان تزول

تماما إذ الطفرة محال ناهيك أن الجهل مازال ضاربا أطنابه بين السواد الاعظم من الامة وتربيتها — وما أدراك ما تربيتها — بالرغم عما فى مبادئها الدينية الحقة من الخير المحض تكاد تعد عدما الامن ضلالات وأوهام ما أنزل الله بها من سلطان .

واذا كان هذا هو حال نقائصنا الادبية ومساوئنا الاخلاقية وشعورنا بها كلنا على مايظهر ويبدو كل يوم فالذي يجب علينا عمله حيالها انما هو مساعدة نفوسنا في الاجهاز على تلك البقية الباقية من هاته النقائص غير ملتفتين الى ما تقتضيه بالنظر الى الشأن الكلى لها من الامد وتستغرق في المجموع من المدة لان هذا ليس من خصائصنا (عليكم انفسكم) ولا من مقدورنا بل للزمن والظروف الحكم القاطع فيه أما الذى علينا نحن فهو تقويم نفوسنا وتقوية شعورنا وتربية أذواقنا ليس إلا . لانه اذا كانت شروط النجاح العقلى والعلمى متوفرة فينا وحاصلة أسبابها ووسائطها لدينا على ماتقدم فلاريب أن جرثومة الاداب وأصل الفضائل من ملازمات نفوسنا أيضاً تختفى وتظهر تبعاً للظروف المحدقة والاحوال المحيطة . فاذا كان سد عوزنا العلمى والعقلى يقتضي التعليم والتدريب والتقليد في النافع من الشؤون

الارتقائية العصرية فنقصنا الادبى غير محتاج بالنسبة الينا الا
الى السعي بالجد فى اعادة معالجة نفوسنا علميا وعمليا بغرس
مبادىء التربيةالصحيحةوالاداب العصرية فيها وفاق ماجرى
عليه القوم مما هو الاصلح في هذا العصر والاوفق لمقتضيات
الاحوال الزمانية والمكانية مع مراعاة آدابنا الحقة وأذواقنا
الكريمة وفضائلنا المستحسنة ولا غرو فالشرق وانكان قدمنى
بالاحن والارزاء التي أفسدت نفوس أهله كثيراً الا أنه كان
أيضاً ينبوع كل الآداب والحكم العالية السماوية والارضية
بالرغم عن تلك التقلبات العظيمة والتغيرات الكلية الكبيره التى
إنتقض أمره منهافصار تابعاً للغرب فيما كانقد نشأ فيه بعد ان
كان متبوعاومرجوحا فى كل شؤونه معه بعد ان كانراجحاً.

نعم نعم أن نقائصنا الأدبية بإزاء الغرب الآن أشهر من
نار على علم اذا افتخر القوم هناك بالصدق مثلا وأتصفو به
خجلنا نحن هنا منحالنا وميل جمهورنا صغاراً وكباراً الى الكذب
فى المقال. واذا ظهرت فى أفعالهم العدالة والاستقامة ومراعاة
روح القانون والشرع المشروع أى أداء الحقوق والقيام بكل
الواجبات الادبيه والشرعية اكتفينا نحن بتمجيد تلك الخلال

فيهم وتأسفنا على انّا لسنا أهلا لمجاراتهم فيها؛ واذا التفوا حول
الجامعة الوطنية حاولنا نحن الانشقاق والافتراق بواسطة سخف
التعصبات الدينية والمذهبية . واذا ظهروا بمظهر الجد والاباء
وجوده الاراء والاذواق والاتحاد وعدم التزلف والرياء قلنا
هـذه القوة نتيجة القوة وتلك السطوة الخصوصية نتيجة
السطوة العمومية والحقيقة ان لا هذا ولا ذلك وانما هى
بالاكثر التربية التربية وحدها هى التى عرفت القوم الحقوق
والواجبات وغرست فى نفوسهم الفضائل فى كنف النظام
الجيد العادل منذ نعومة الاظفار فكانت لهم نعم العون كباراً
فرادى وجماعات وأهمالها أو تفاهتها عندنا أضطراراً أو أختياراً
حتى هذه الغاية مما لا عذر لنا اليوم فيه هو الذى عكس حالنا
وإن لم نتلافاه ليزيد حطاً في آدابنا وأحوالنا لاعتبارات كثيرة
أهمها قلة المادة الادبية لدفع شرور المدنية العصرية

وإذا كان رقينا الادبى كالعلمى قدأضحى من الضروريات
فى هذا العصر لكي نحيا الحياة الطيبة بسلام ونجد بين هاتيك
الشعوب الراقية النشيطة فيجدر بنا والحالة هذه أن نتخلق بالفضائل
ونتصف بالآداب العالية الجامعة مستمدة من المبادىء الاسلامية

السامية مؤسسة أيضاً على أكمل الخلال وأجمل الشيم والاذواق المصرية التي سداها على الخصوص محبة النظام والترتيب ولحمتها مراعاة روح الشرائع والنواميس الأدبية والعملية ولقد قال بعض الشعراء الفرنساويين ما معناه: « الوطني العاقل هو من يحترم في وقت واحد كنز الاخلاق القومية الكريمة ومعدن الشرائع المشروعة »

٤

﴿ عيوبنا العائلية ﴾

العائله اس الاجتماع البشري — العائلات المصرية قديماً — كيف تقلبت احوالها بالتوالي بقايا بعض العوائد — كيف اثرت المجربات العموميه فى الامور العائليه — ما نشكو منه الان فيها — ما يأمرنا به الشرع — حكمة للفيلسوف روسو .

العائلة هى أول أمر جامع للناس فى تكوين الجمعيات البشرية فانى كان هذا الاجتماع الانسانى كانت العائلة بتركيبها المألوف وتنظيمها المعهود من أزواج وأولاد وأخوة وأخوات الخ وكما أن العائلة هى أصل فى الاجتماع البشرى فهى كذلك أصل فى تكوين السلطة وقيام التقاليد الموروثة فى العوائد والاخلاق والدين ونظام الحكومات .

ولما كانت الامة المصرية من أعرق الامم في المدنية
القديمة فلاغرو اذا أشتهرت العائلات المصرية من قديم الزمان
بالامتياز بجودة التقاليد في المعاملات وأداء الواجبات العائلية
والاخلاق الفاضلة وتربية الاولاد وأحترام مقام المرأة كما دلت
عليه الاثار والتواريخ السالفة غير أن عصور الانحطاط التي تلت
عصور الازدهاء القديمة كانت ولاشك سبباً عظيما وعلة قوية
في تقهقر اخلاق العائلات المصرية وتغير أحوالها تدريجاً تبعاً
لتغير الاحوال المكتسبة والاختلاطات القسرية التي حصلت
في البلاد مع مثل الفرس واليونان والرومان والعرب ونحوهم
ولما ظهرت الديانة المسيحية ودخلت هذه البلاد حورت
كثيراً من أخلاق عائلاتها وهذبتها ثم أعقبتها الديانه الاسلامية
فكانت خاتمة تلك التغيرات والتطورات التي صارت بها الامة
المصرية إسلامية عربية محضه لغة وديناً وعوائداً الا فيما ندر
من تلك العائلات التي حافظت على تقاليدها السابقة مع التطور
والتخلق أيضاً بكثير من العوائد العربية والاخلاق الاسلامية
والا فيما أقتبسته الامة العربية نفسها من العوائد القومية المصرية
القديمة وفاق ما تقضي به حالة الوسط العمومي وعادة الاختلاط

المحلى ودرجة الامتزاج الكلى أستفادة وتقليداً مع بقاء جوهر العوائد العربية متوحرة متكيفة بالشكل الكلى المصرى الخصوصي لهذا جمعت الامة المصرية الحديثة بين كثير من العوائد العربية وبقايا غير قليلة من عوائد المصريين القدماء مما لا تعلق له بأى من دينيها الاسلامى والمسيحي خصوصاً فى جهات الارياف دون المدن التى لها حكمها الخاص التابع لسرعة التغير في العوائد والاخلاق تبعاً لكثرة ماهي عرضة له عادة من كثرة الاختلاط والامتزاج بالاجانب من غير ذينك الاصلين الكبيرين الاصل العربى والاصل المصرى القديم .

ومهما يكن من جودة العوائد المصرية التى ابق عليها الزمان وحفظتها الايام لهذه الامة ورداءة بعضها. ومهما يقال عن متانة الاخلاق العائلية العربية التابعة للحالة البدوية القديمة من جهة والحكم الشريعة الاسلامية من جهة ثانية والاداب العائلية والاجتماعية التى اقتضاها حال الخلطة وقوة الامتزاج بالامم الاسلامية الكريمة الاخرى خصوصاً من الترك والجركس والسوريين الخ فان الاحوال السياسية والامور الاجتماعية الكلية التى أثرت على الامة فى أمورها الادبية كان لها أيضاً عين ذلك

الأثر السيء في أحوالها العائلية فلذلك ضعفت فيها التربية العائلية وساءت إدارة البيوت الداخلية فكان لنا من ذلك بضميمة المقتبسات الرديئة الغربية في أحوالنا الراهنة معائب عائلية جمة يجب علينا إعطاءها ما تستحق من كبير العناية وعظيم الاهتمام إصلاحا وتحسيناً عصرياً جليلا محافظة على الحياة العائلية وروابطها الكلية التي عليها يتوقف مدار ما ننشد من حالة الرقي الصحيح وما نبغي من استيفاء أحوال التمدن الحقيقي .

إن الشكاية من تفكك الروابط العائلية وكثرة شقاقات البيوت الداخلية وفقدان التربية العائلية أمور قد اشتهرت عندنا في هذه السنين الاخيرة اشتهاراً عظيما قل من لم يدرك ما هو حاصل من نتائجه السيئة في أخلاق جمهور الامة وأسرها من رفيعة ووضيعة فاذا ما سمعنا انين الطبقات العالية من شقاقات النظير للنظير بين الازواج فيها لتناسي الواجبات الزوجية وتجاهلها المنتج للكثير من العيوب العائلية شعرنا كذلك بمساوىء الطبقات الدنيئة في مشاجراتها وخصاماتها وتسابها وتلاكمها وكثرة حيف الرجال فيها على النساء للجهل المطبق بمعرفة الواجبات الزوجية الشرعية والعرفية المتناول ذلك الجهل

للطرفين الرجال قبل النساء .

وهذه الحالة المزرية التعيسة بضميمة الاعتبارات الاخرى خصوصاً من حيث فقدان النفوس عندنا لذة الشعور العائلي فى الغالب وحسبان الزواج « لعبة » من اللعب والبيت « مأوى» تأوى اليه فقط لا أنه مملكة للانسان قد إرتبط بأدارتها وجودة تنظيمها وتنسيقها هو والتي قد إختارها أو أختيرت له شريكة فيه لينتج له ولها السعادة والراحة والهناء فى كل شؤونهما وشؤون أولادهما الحيوية هو الذى فكك الروابط العائلية وأساء حال النساء وخلقهن وأفسد تربية الاولاد بالمرة ولقد زاد الطين بلة أخذنا بقشور المدنية الغربية الحديثة وما جر اليه ذلك من السرف والتبذير دون النظر فى العواقب مما كان داعية الشر كله الذى طالما جر الى أشأم العواقب فى الاسر وأرداء المغاب على العائلات

إن أكثر الشقاقات العائلية عندنا وما تجر اليه من كثرة «الطلاق» وفساد تربية الاولاد وسوء إدارة المنازل وتنغيص عيش سكانها كلها أمور مسببة بالنظر الى حالتنا الراهنة عن الجهل أو التجاهل بتلك الواجبات البيتيه والحقوق الزوجية

المتبادلة فلو أتيح لارباب العائلات عندنا المحافظة على أصولها المؤسسة على الشرع والعرف الحسن والذوق المصري السليم المستفاد من أحوال المدنية الغربية الحقة لدخلت الراحة في بيوتنا ولولج الهناء والسعادة على عائلاتنا من كل باب كما دخلت فى بيوت الامم المتمدنة الراقية المعاصرة والمعاشرة لنا فانتجت لهم أشهى الثمار فى الحياة ولذاتها الحقيقية وانجب البنين والبنات الذين يفتخر بآدابهم ويزدهى باستقامتهم .

فالاستهتار بامر تكوين العائلات عندنا المبنى على الاسباب الانفةهو الذي يجب علينا العمل لتلافيه بقطع جرثومة أسبابه ومساعدة العواطف والاميال الطبيمية الطيبة التي تعمل أبداً لاختيار الانسان الافضل فى كل شيء وقد قررت الشريعة الاسلامية الغراء الامهات منها فهى تأمر باختيار الزوجة وحسن العشرة بين الزوجين بالمعروف وتجمل الرجال قوّامين على النساء بحد محدود وترمي الى الرفق والشفقة بهن لضعفهن ويقول الحديث الشريف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « ابغض الحلال الى الله الطلاق » الذي جعله الله تعالى مرتين « فامساك بمعروف أوتسريح باحسان» وينص الكتاب العزيز

أيضاً على انا ان لم نقدر على اقامة العدل فيما اباح تعالى لنا من تمدد الزوجات فيجب الاقتصار على الواحدة .

كذا ندبنا الشرع الى تربية الاولاد تربية صحيحة عقلية وبدنية والى رحمة الابوين والقيام بحقوق البر بهما. ويأمرنا أيضاً بصلة الارحام الاخرى للتآلف والتحابب فهلا يتاح لنا ان نتمسك تمسك فمل وعمل بهذه الاداب الاسلامية السامية والواجبات الشرعية المنيفة ؟ وهي وحدها لعمر الحق كافية وافية لان تدرأ عنا كل عيوبنا العائلية التي تئن منها ونشتكي فضلا عن انها بامورها الكثيرة الشائنة من اكبر العوامل في التعويق بنا في سبل الرقى الصحيح ونهج السعادة البيتية والعمومية ومسرات الحياة الاجتماعية ولقد قال الفيلسوف روسو « انه لا يرى قط من يسر ويبتهج فى عائلته الاخيار للناس » فلماذا لا نرتب امورنا العائلية بما ينفعنا وينعم بالنا ويدخل السرور والابتهاج على أفئدتنا واهلينا ونحن من خيار الناس ؟

٥

﴿ شؤوننا الصحية ﴾

اهمية الامر وخطارة الشأن — القدماء وعنايتهم بامر الصحة — حال الاوربين فيها اليوم — تعاسه الحال عندنا — الخمر والحشيش والاخلاق الفاسدة حكمة لقنلون

صحة الابدان هى تعادل كل وظائف اعضائها الرئيسة العاملة فى قيام الحياة البشرية . بل هى تعاون كل تلك الوظائف جهاداً ضد تلك الاستحالة التي ينتهى اليها امر كل حي من الموت والفناء فمن ثم قد اضحى من البديهيات ان أفضل ما ترى اليه المقاصد وتسعى فيه الرغائب إنما هو الحفاظ بصحة البدن وعافية الجسد وبالتالى مساعده تلك الوظائف التى تقوم بها الاعضاء اذ ذلك شرط من شروط السعادة فى هذه الحياة الدنيا ومجلبة لذاتها ومسراتها لانه ما ذا يستفيد المرء من الحياة ومرائز السعي فيها اذا كان جسمة مثقلا بالامراض ومزاجه منغصاً مشوشاً بالاسقام سواء فى ذاته أو في أحد أفراد عائلته فرعاة الامور الصحية العملية الضرورية في حفظ الابدان وسلامتها من الامراض بل وتقويتها ليس أفضل ولا احسن منه قط

فيما يبذل من المساعى البشرية ومن ثم جاء فى الحديث الشريف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « ان لبدنك عليك حقا »

وفن حفظ صحة الابدان وان كان أحد فروع الطب ومعاضديه الا انه قد اضحى الآن من الجهة العملية من مزاولات كل الناس في وجوب تعلمه وتفهمه والاهتداء بهديه ومن ثم كتبت فيه الكتب الاهلية والاسفار العمومية فى كل الامم والشعوب االمتمدنة وان كان من الجهة العملية البحتة معلوم من قديم الزمان فى أهم اصوله مثل الرياضة البدنية والاستحمام الخ بل ان كثيراً منها حتمتها على الامم الشرائع القديمة كما كان الشأن في الهند ومصر وبلاد اليونان والرومان وشريعة اليهود والشريعة الاسلامية الغراء فيما قررت في الطهارة من الوضوء والاغتسال والختان وتحريم الخمر الخ .

ولقد كان لاسبرطة وورومية الشأن العظيم بهذا الصدد الانسانى الكريم فقررت اسبرطه الرياضة البدنية والالعاب الجمنستيكية بقصد تقوية الابدان وتخريج الرجال الاشداء بعكس ماسعت اليه اتينا من تخريج الفلاسفة والحكماء. واعتنى الرومان شديد الاعتناء بالشؤون الصحية من حيث النظافة والاستحمام

والتمرينات البدنية ولبس الملابس الواسعة المناسبة لحالة اقليمهم
هذا فضلا عما اشتهر عن عناية حكومة رومية البلدية بشؤونها
الصحية العمومية كما تجرى عليه الان الحكومات المتمدنة

ونحن اذا نظرنا الى الامة العربية قديماً رأينا انها قد اعطت
الرياضة البدنية حقها على نحو ما صنعت اسبرطة بما اشتهر عن
العرب من ركوب الخيل العربية والعابها المشهورة قديماً

ولقد بلغ حال القوم المتمدنين اليوم فى أوروبا وامريكا
بالنظر للعناية بالمحافظة على صحة الابدان مبلغاً عظيما جداً سواء
من قبل الحكومات أو من ناحية الاهلين بعد ان كانوا الى
أوائل القرن الثامن عشر لا يهتمون بذلك ولا يعتنون به لما
كان مخيما على العقول حتى ذلك العهد من الاوهام تبعاً للتأويلات
السطحية لبعض ما جاء فى أصول الديانة المسيحية لكن ما لبث
القوم ان عرفوا خطأهم ومزية العناية بأمر الصحة البدنية حتى
اندفعوا في طريقها بحمية ونشاط كما اندفعوا فى كل فروع
التمدن الاخرى الى ان وصل حالهم فيها الان الى أبعد المدى
مما يجب علينا نحن الاخرين ان نقتدى بهم فيه لا سيما وان
اوامر ديننا صريحة فى الحث على ذلك مستوفية أصولها التعبدية

لكثير من أشيائه

قال العالم دوباي «صحة الابدان هى من بين الكنوز التى لنا من اثمنها قيمة ولكنها من اقلها كرامة علينا وصيانة لدينا» وهذا القول أراه ينطبق بالتمام علينا نحن المصريين لان شأننا وأمر عنايتنا بصحة ابداننا والاحتفاظ بقوانا هو بالاسف دون ما هى عليه حال الاوربين خصوصاً عند السواد الاعظم من الامة ولذلك كثرت بين تلك الطبقات النازلة السقام وانتابتها الامراض والعلل الفاتكة خصوصاً في الاطفال فكاننا نعجل بالزواج الباكر ونكثر من الزوجات على غير ضرورة أو قدرة لكي نكثر من الذراري ونعجل بها بجهلنا الى سكنى القبور أو لتعيش عيشة النغص والنكد وهى وايك جناية على الانسانية لا تغتفر مصدرها الجهل ومنشأها غباوة نفوس الجاهلين

ان أقليم بلادنا جميل وشمسه عظيمة ونسيمه عليل وماؤه نمير كثير فما هو السبب اذاً فى كثرة الاسقام والامراض فيها؟ لا ريب ان كل عاقل منا يعرف سبب ذلك ومصدره فهو ماقلت وطالما قاله الاطباء وجماعة الكتاب الفضلاء عدم عناية الطبقة العظمى من الامة بالشروط الصحية .

فهى في بيوتها ومساكنها القذرة الوسخة وفي ابدانها المهملة
وفي أمراضها المستغيثة بالدجلة والمتطببين وفي شؤون اطفالها —
مما جميعه — المتراخية المتكلة على التمائم والاحجبة وضمر الضمارين

بني قومي — ولا انادي غير تلك الطبقه سمعت او لم تسمع
لندائي فهمت أو لم تفهم لخطابي — ان رسولنا الكريم صلى الله
عليه وسلم أمرنا أمراً عظيما بالنظافة والتداوي من الامراض
والفرار من المجذوم كما يفر من الاسد حاكم هذا الذي أنتم عليه
مشين وأمركم في تلك الشؤون الحيوية مردى فأبقوا على أنفسكم
واحفظوا حق ابدانكم بسلوك سبيل الرشاد الصحي الحديث
تحظوا في أنفسكم وذراريكم بالحياة الطيبة والعمر المديد

وهذا أمر ميسور لا يقتضي الغنى الواسع والمال الكثير
فلطالما قال العقلاء واساطين اهل الحكمة بانه لا يلزم في السعادة
ان يكون للانسان بيت من زخرف وقصر مشيد بل يكفى
لهنائه أن يسكن الدار النظيفة والغرفة الصحيه التي يتخللها النور
والهواء ولا معنى لذلك سوى ان يسعى الانسان ويحافظ على
تنظيف بيته ويفتح كواه ومنافذه ليدخل اليه ذانك العنصران
الضروريان في قوام الحياة ونشاط الابدان النور والهواء أترون

هذا صعباً ؛ قال بعض علماء اوربا « الهواء المتجدد بلا انقطاع ونور الشمس ذلك ما يلزم الانسان قبل كل شيء »

واذا نظرنا الى نظافه الابدان والملابس كان شأنها هى الاخرى من السهولة بالمكان اليسير اذ الصابون والماء رخيصان للغاية عندنا والاوانى النحاسيه من الدست والطشت من أخفر والزم امتعتنا فلما ذا اذاً لا نكثر من الاستحمام كل يومين او ثلاثة ان لم يكن ؛ يوميا ولما ذا لا نغسل ثيابنا كلما اتسخت ؛ وهل يفيد فى ذلك تأدية فروض الطهارة من الاغتسال والوضوء سطحياً غير مراعى فيها روحها مادام البدن والثوب يبقيان على حالهما من تراكم الاقذار والاوساخ ؛ وفي الحديث الشريف عن النبي صلى الله عليه وسلم « النظافة من الايمان » وقال لاروشفوكلد الفرنسي فى بعض حكمه المشهورة «النظافة احدى أمهات العافيه وهى بالنسبة الى البدن كالمودة والمحبة بالنسبة الى الارواح »

بل لماذا اذا مرض مريضنا نسعى الى الدجال والمتطبب ولا نسعى الى الطبيب القانونى وهو قد درس فن الطب وعرف منه الاصول والفروع الحديثة وقد لا نحتاج معه في النفقة الى

اكثر مما يسلبنا اياه ذلك الدجال الذى لا يهمه سوى الدرهم الذى يبتزه منا شفى مريضنا أو قضى نحبه لجهله بشرف صناعة الطب وحرص الاطباء القانونيين على سلامة ارواح مرضاهم ؟

بل لماذا اذا اخذ السقم من اطفالنا مأخذه بجهلنا غالباً نكتفى بان نضع لهم الاحجبة والرقى ووصفات العجائز ولا نسرع بهم الى الاطباء وان كان ذلك فقد لا يكون عادة الا بعد الوقوع في خطر الدور الاخير لاحد تلك الامراض الفتاكه التي تنتاب هذه الاجسام اللدنة التي كثيراً ما تقضي على حياتها بسبب اهمالنا وتراخينا فى بداية امرها معها؟

فالرقى العصرى يقضي علينا جميعا بان نسعى جهدنا لاسيما جماعة الاطباء منا فى بث الكثير من النصائح والحقائق الصحية في افهام العوام كما هو قاض علينا ايضاً بالسعي فيها فعلا بالنظر الى تسهيل وسائل العلاج القانونى سواء من حيث تسهيل اجور الاطباء وثمن العقاقير وانشاء اماكن العيادات الكثيرة المجانية للفقراء الى غير ذلك مما تستلزمه حالة الامة وفقر السواد الاعظم من بنيها اذ للفقر أيضاً حكمه السيء في هذا السبيل كما هو لسلطان الجهل

وهنا مسئلة اخرى عظيمة الاهمية بالنسبة الى ما يعرقل رقينا الصحى فى جميع احواله الطبيعية والادبية وهى مسئله تعاطى المشروبات الروحية والمخدرات فذانك الامران لهما هما الاخران مضارهما الجسيمة فى ضعضعة احوال الامة فى أبدانها وقواها العقلية والادبية ومن الاسف انهما شائعان شيوعاً هائلا عندنا خصوصاً بين ابناء الطبقة السفلى والاخلاق المنحطة

ولست بالطبيب حتى اقدر ان اصف أو أشرح هنا شرحا صحيحاً طبياً اضرار الخمر فسيولوجيا وصحياً بالابدان وانما اقتبس من عموميات ما قالوا ومما هو مشاهد للعيان من ان اقل ما فيها انها تساعد على هياج الامراض الكامنة فى الاجسام فضلا عما تزيد الطين بلة بما تجلبه عليها من العلل والامراض الخاصة بها .

واذا نظرنا اليها من الوجهة الادبية نرى انها بالحقيقة كما قال القدماء أم الخبائث ومجلبة الخسار ومفسدة الاخلاق وقارورة الاقذار والاوزار وما صرعى الكؤوس وليالى الغانيات عندنا بقليل

أما الحشيش فضاره اشهر من أن تذكر فهو أخو البلادة

والبله وداعية الجمود والخمول وطريق الهوس والجنون أخيرا للتبغ مضاره الصحية ايضاً وان كانت قد لا تذكر في جانب آفة هذا الحشيش .

تلك هي الحال السيئة في شؤوننا الصحية وهـذه هي بلوى ما منيت به هذه الامة الاسيفة بجهلها من مضار شرب الخمر وتدخين الحشيش وكلا الامرين معوقين بها عن انتهاج سبل الرقي الصحيح فهل لنا ان نعزم الامر ونحزم الرأى تحريا للسلامة فنجرى في شؤوننا الصحية على مقتضى قوانينها الحديثة ونخالف هوى النفس والشيطان فنمتنع عن تعاطى الخمر ونبطل تدخين تلك الآفة من الحشيش ونصلح من مفاسد اخلاقنا وشهواتنا مما هو على هـذه الشاكلة المنهكة للقوى المجلبة للامراض حتى ننال حظاً مما يقول عنه الحكيم الفرنسى الشهير فنلون « ان الاخلاق الجميلة تنتج صحة الابدان؟ »

٦

﴿ أعمالنا المعاشية ﴾

عوامل الثروة في العالم — الطبيعة — العمل المعمل — راس المال وكبير اهميته — بلادنا زراعية وحياتها علي النيل — العامل المصري وعظيم كدحه — شيء من معائبنا وتهوراتنا بتلك الشؤون الاقتصادية — قله الاجور ولابد من ارتفاعها

عوامل الثروة وموارد الرزق ثلاثة هي الطبيعة والعمل ورأس المال ويراد بالطبيعة عادة الارض وما حوت للانسان من خيرات حسان بين زروع مختلف الوانها واثمارها تسقى بالمياه الجارية أو الغيوث المتدفقة وبين كنوز من المعادن حوتها بطون هـذه الارض من فحم وحديد وصرفان وذهب وفضة الخ. فأيما بلد امتاز بين البلدان بأحد هذين الصنفين من موارد الرزق الطبيعية — الزرع أو المعدن — خص بالمواهب العظيمة والمنح الجليلة الموجبة عادة لرفاهية حال ساكنيه وهناء مستوطنيه بمقدار ماحوى منها وبنسبة ماخصوا هم به من النشاط في العمل لاسيما اذا ساعدهم على ذلك جودة الوضع الجغرافي لبلادهم وسهولة طرق المواصلات فيها ازاء البلدان الاخرى ومرافق التبادل الثانية .

فالبشر لكي يحصلوا العيش ويستغلوا الثروة لا بـد لهم من معاونة الطبيعة لهم باشيائها وخيراتها إما بالوسط المناسب أو بالاراضي الصالحة أو بالمواد الاولية لمتحصلات الصناعة والثروة البشرية . وهذه كلها قد اختلفت فيهـا أقطار كورتنا الارضية أيما اختلاف فى المتنوجات للحكمة الباهرة التى أرادها البارى تعالى من ابقاء الحاجة الى التبادل بين الآدميين فيما بين ايديهم من انواع السلع والمستغلات فيأخذ هذا من ذاك ما ليس عنده منه وهو بعد في حاجة اليه ويأخذ ذاك من هذا ما هو لا زم له فى الحياة وهلم جراً

ولقد يظهر لنا من هذا الاختلاف وذلك التباين في أشياء الطبيعة فى أقطار المعمور انها ما خصت بهذا الشكل الا لحكمة تنويع العمل البشرى والشغل الانسانى أيضاً ذلك العامل الرئيسى فى انتاج الثروة وتحصيل الارزاق بالسعي فى مناكب الارض على اختلاف انواع العمل وتلك المساعي أو مرامي الغـايات البشرية العاملة أبداً فى الرقى طلباً للمزيد من الحظوظ الدنيوية وتسهيلا لامر الحياة ومسراتها والتنافس فيها والتزاحم عليها بالمناكب تحصيلا وتبادلا فالعامل العامل فى التزاحم هو الرابح

الظافر والكسول أو الخمل هو الخاسر والمذموم ولقد قال جوث
الفيلسوف الالمانى الشهير « حياة البطالة هي الموت العاجل »
على ان من أنواع البطالة وضروب الكسل تفاهة الاعمال
ونقص أو ضعف المساعى العملية كما ترشد اليه وتدل عليه
المقارنة بين أحوال الامم النشيطة والامم الخاملة وأن هذه قد
صار الكثير منها طعمة لتلك سنة الله فى خلقه

ولقد عرف الاقتصاديون العمل بانه «ما يجرى الانسان
ويقوم به من حركة وسعي اختيارى لتحويل المادة طلباً للرزق
وقد قيدوه بالاختيارى ليخرج ما يجريه الانسان من الاعمال
لمجرد اللهو وعلى سبيل التسلية . وهو يقسم الى يدوى وعقلى
بالمعنى المصطلح عليه والا فكل عمل كما لايخفي لايخلو من عمل
الفكر واليد معاً غالبا. ومن النوع الاول عموم الصنائع والاشغال
اليدوية من زراعة وصناعة وتجارة ويدخل في الثانى الاعمال
العلمية والاشغال الفكرية والقلمية كالاشتغال بالتعليم والتدريس
والوظائف الادارية والقضائية والسياسية والمحاماة وهذه الاعمال
كلها لا بد أن تكون فى المجتمعات على نسبة حاجتها اليها فزيادة
عدد المشتغلين باحدها عن النسبة او نقصه عن الحاجة يضر

بالبلاد كما يضر بنفس المشتغلين بها أو يثبط من هممهم أو يلجئهم الى التحول عنها الى غيرها من المحترفات النافعة أو النزوح الى البلدان التى تحتاج الى أعمالهم وتتسع فى وجوههم

أما رأس المال فهو بحسب الاصطلاح الاقتصادى أيضاً ما يحرزه الانسان ويقتنيه من الاشياء المادية والامور العقلية التى يخصصها للاستعانة بها على تحصيل رزقه واكتساب عيشه فقدوم النجار ومسطرين البناء ومحول المزارع وعلم المعلم وطب الطبيب وقوة عارضة المحامى وسلعة التاجر وعقار المالك وسندات واسهم المالى ودرهم الجميع كلها من رؤس المال المادية والمعنوية التى لا غنى لبشر عنها بحسب الاحوال التمدنية الى أشباهها الكثيرة مما تقتضيه تلك الاحوال فى تغيراتها وتطوراتها تبعاً للظروف والقابليات الزمانية والمكانية

هذا وغير خاف ان بلادنا المصرية زارعية محضة حياتها على نهر النيل المبارك وبه قوامها وعليه مدار عيشها بل وكل أراضيها الزراعية مستفادة من مادة طميه ولقد قال هيرودوتيس المؤرخ اليونانى الشهير الذى ساح مصر قبل المسيح بعدة قرون كلمة جامعة شاملة لهذا الحال التى عليه بلادنا وقد اتخذها كل

من كتب عن هذه البلاد بعده حجة وبرهانا لهذا الحال أما هذه العبارة فهى قوله « مصر عطية النيل » وهى فى الحقيقة كذلك منحة منحها البارى تعالى المصريين بواسطة ذلك النهر المبارك الساقى لزرعنا المخصب لتربتنا المسهل علينا كل طرق المواصلات بوضعه الجميل وجريانه بفروعه وترعه كالشرايين فى جسم البلاد فلا غرو اذا قلت أنا من هذه الوجهة الاقتصادية مغبوطون مغمورون بالنعم الطبيعية وان عدمت أراضينا المحاصيل المعدنية المهمة ومواد الصناعة الاولية فلتابحق المبادلة والمقايضة بمحاصيل البلاد الاخرى أعظم كفيل يسد حاجتنا ويقضي لبانتنا منها .

أما من جهة العمل فقد اشتهر العامل المصرى منذ عهد القدم وسالف الحقب بحسب طبيعة البلاد وفيضان نهرها الدورى بالنشاط وقوة الكدح والصبر على احتمال المشاق العملية غير ان تلك العوامل الاجتماعية التى أثرت على البلاد قديما اناخت عليه هو الاخر بكلكلها فجملته كالرميم يعمل بالانكماش ويشتغل بلا قوة فكرية حتى أضحينا وينقصنا الاشياء الكثيرة من حيث تغيير طرق العمل القديمة في الزراعة والصناعة

بالاساليب الحديثة علمياً وعملياً وهذا ولا ريب قد نناله تدريجاً باعارة تلك الاساليب الجديدة الغربية جانب الالتفات والاهتمام سواء فيما يختص بالاعمال الزراعية — وهذه للحكومة والجمعية الزراعية الخديوية بعض الفضل الكبير عليها حتى الآن — أو فيما يتعلق باشياء الصناعة والفنون البشرية وسبيلها الاكثار من مدارس الصناعة العملية وسيأتى مزيد بيان عليها فى الفصل التالى.

وهذا ما يسميه الاقتصاديون بتحسين رؤس المال ثم هذا هو ذاك بعينه بل وان شئت فقل هو كل الحياة الاقتصادية المصرية فما على زراعنا وصناعنا وناسنا عموماً الا ان يلتفتوا الى ما بايدي الغربيين من الآلات والعدد الجديدة وما تحوى الاذهان ثم من الاساليب الفنية مع مراعاة ما يستجد منها على الدوام هناك نظرياً وعملياً فبذلك ننال المبتغى فى الرقى الصحيح ونحظى بالمنى فى معائشنا وأسباب ارزاقنا

ولى هنا كلمة فى طرق استثمار المال على جهة العموم اختم بها هذا الفصل فاقول : ان تلك الطرق ما زالت عندنا على تفاهتها وعقمها والسير فيها ما برح بحسب الاساليب القديمة التي وان كانت قد صحت ونفعت الامة فى ازمانها السالفة فما

لا ريب فيه انها الآن تعد من اسباب التأخر والانحطاط فيلزم الاتحاد وتضافر الايدى وتعاونها بتأليف الشركات الصحيحة المختلفة واستثمار رؤس الاموال المدخرة سواء فى مصر أو في السودان بما تقتضيه أحوال العصر ومبادئه الاقتصادية وقابلياته مع حسن التبصر وعدم الاندفاع فى تيارات تلك الشؤون ومزالقها بما يعد عين السفه أو عين الخراب لانه في الاعمال الاقتصادية والامور المالية يلزم أن يكون الاقدام والاحجام فيها استفادة وافادة أخذاً وعطاء على مقتضى النسب وبحسب الظروف الموافقة أو المخالفة اذ للغرور والطمع والجهل مداخل هى من قبيل القاء الانسان بنفسه الى التهلكة وأي عاقل يقدم على ذلك !

على ان الحركة الاقتصادية الحالية كثيراً ما نبه على الحذر منها والتحوط لها ارباب الحل والعقد فى الامور الذين ادركوا بثاقب الفكر وواسع الاطلاع ما ورائها من المحذورات والمخاوف من ناحية الانعكاس في الاحوال وردود الفعل السيئة المغبة — كما ترمي اليه اقوال جناب المستشار المالى للحكومة فى مذكرته على ميزانية هذه السنة — خير الامور الوسط وما ارتفاع اثمان

الاراضي الزراعية والعقارات وتقلب اسعار المحاصيل والمستغلات خصوصاً القطنية وارتفاعها الا وهو يتبع قوة حركة جديدة يمكن اعتبارها «فجائية» هى نتيجة «سمعه تحسن الامور المالية بمصر وتقدم احوالها وغزارة محاصيلها وكثرة ارباحها» فكان من وراء هذا الخير العميم الذي تسلك سبيله البلاد بواسطة الاصلاح المصرى ان انهالت على البلاد الاموال والايدى الاجنبية من كل فج عميق طلباً للارزاق والارباح وسهولة الاستثمار وعظم القوائد فهل نربح نحن منها او نستفيد من وراء تلك الحركة الفجائية عندنا الا بمقدار ما يكون لنا من الحزم والعزم وقوة التدبير والتبصر فى الامور وقراءة العواقب ؟ وهل يحسن بنا ان نقدم على البيع أو الشراء أو الاستئجار أو الاستدانة أو المضاربة إلا اذا تحقق لنا الربح الاكيد أو السلامة من خسارة التليد من وراء ما نجرى من تلك الاعمال واشباهها مطرحين التراخى ناحية والطمع الاشعي جانباً وما سبيل الكسب فى الحياة فى ظروفنا الراهنة خصوصاً باللعب والهزل ؟

ولقد جرّت تلك الحركة الآنفة من جهة أخرى على البلاد ارتفاع اسعار الضروريات والحاجيات مما اضحت الشكوى منه

والبلوى عامة طامة حتى فى الجهات البعيدة الاتصال بالمدن ذات الاسعار الكبيرة ولا بد للعامل الفقير والصانع الصغير — ذلك الذي لا مال له ولا عقار — تلقاء ذلك ان يتمسك هو الآخر بذلك الحق الاقتصادى من رفع اجرته على الاعمال التى يقوم بها بنسبة كثرة رؤس الاموال وقوة الحركة العملية فى الاشغال على ان مما لاريب فيه ان اجور العمال وان كانت قد ارتفعت قليلا لكنها ما زالت دون ما تقتضيه الاحوال وغلاء اسعار حاجيات العيش ورفاهية حال اولئك العمال وعائلاتهم وادخار بعض الشيء من مكاسبهم للمستقبل المملوء بالمخاوف بالنظر الى تلك الطوائف العاملة وهذه حقيقة حرية بالنظر فلا تفوتن ذوو الشأن فيها من هؤلاء العمال وهي ولا شك غير فائتهم على طول المدى ان اختياراً أو اضطراراً كما تدل عليه منذ الآن بوادر الامور فى ارتفاع الاجور وأشرأ باب الاعناق جهاداً في سبيل الحياة وتحصيل العيش .

٧

﴿ صناعتنا وتجارتنا ﴾

الصناعات قديمة فى الامم — تعريف الصناعة على اوسع المعانى — تقدم الصناعة فى اوروبا وامريكا اخيرا ورواجها — طريق احياء الصناعة عندنا — التجارة والتجار — اشتهار بلادنا من قديم بالتجارة ايضاً — التجارة الكبيرة الان بيد الاوربيين — كيف تستصلح حال التجارة عندنا وامتداح مزاولتها شركات التجارة ونواديها وما يحييها .

لاحياة لامة بلا صناعة وليس من امة من الامم تعدم اصول الصناعة البشرية وان اختلفت فيها بحسب الحاجات والوسط والازمنة ودرجة الرقى والاذواق العصريه. فالانسان قبل ازمنة التاريخ المعلومة كان له ادواته وان شئت فقل صناعته ومحترفاته الساذجة مما كان يستعين به على تحصيل العيش والجهاد في سبيل الحياة ثم جعل يترقى بها وتترقى به شيئاً فشيئاً بحسب الاحوال واختلافها فى الامم والشعوب الى أن وصل فيها الى صناعات هذا العصر الكبيرة الدقيقه ومخترعاته العظيمة اتماما لوظيفة الخلافة على الارض التى جعلها الله تعالى لآدم وذريته الى ما شاء الله .

والصناعة على أوسع المعانى فيما يقصد بها هنا هى « إعمال القوة البشريه البدنية والعقلية بالنظر الى المتزاولات الانسانية المختلفة التى لا نهاية لتطبيقاتها وتحويراتها فى صور المادة وماهو في حكمها مادام الانسان وما دامت الحياة » وهى في الجمعيات البشرية بنوع أخص أو اجلى مجمل فروع الاعمال التى لها مساس بالحياة والتماس المعاش ونحو ذلك الشاملة لمثل ماتبرزه الاعمال الزراعية والصناعيه والتجارية والخدم والتعليم ومزاولة الفنون الجميلة الخ فترى من هذا انه لا غنى لجمعية بشرية عن الصناعة وان لا ثروة ولا حظوظ الا بواسطتها وان اغنت الطبيعة بحسب اختلاف احوال الاقاليم الناس عن اشياء منها أو جعلتها عندها يشكل يخالف ما عند غيرها منها كما تقدم في كون مصر بلاداً زراعية .

ولقد قلت فى الفصل السابق مافيه الكفاية بالنظر الى الاعمال المعاشية من وجه عام وهنا أدخل في خصوص الصنائع من الوجه الاخص أى المقصود بها فى هذا الفصل فأقول :

لايختلف اثنان اليوم بأن تقدم الصناعة في أوروبا وأمريكا تبعاً لحالة الرقي العقلى والعملى الذى شمل البلاد في الازمنة الحديثة

وعصور الازدهاء المتأخرة قد أفاد هذه الامم فوائد جليلة جداً واكسبها الغنى الواسع والثروات الطائلة والحركة الاقتصادية والسياسية السائدة بها على جميع أقطار المعمور فبعد ان كانت مكتفية « بالصناعة الصغيرة » كما هو الحال في البلاد الشرقية حتى هذه الغاية أضحت الآن ذات المعامل الصناعيـة الكبرى والمصانع العظيمة والورش والفابريقات ذات العدد البخارية الضخمة والآلات الكهربائية الهائلة التي تخرج للجموع البشرية وتبرز لكل سكان البسيطة « جميع أشيائهم ولوازمهم » من حاجية وكمالية وتحملها اليهم مراكب البحار وسفن البخار وتصرفها بينهم أيدى التجارة الماهرة وشركاتها العظيمة ذاهبة فيها كل مذهب متفننة فيها كل تفنن فهي بذلك قد صارت مصدر حياة الامم القريبة والنائية ومستمد حركتها المعاشية بالنظر الى ذلك حتى اضحى حالنا نحن الشرقيين إزاء الغرب ان صارت صناعتنا الوطنية لا تفي بحاجاتنا حتى الضرورى منها .

وهذا الحال مهما يكن من أسبابه المحمولة في الجملة على قوة تقدم القوم وعظم تراخينا نحن للاسباب الكلية التى سبقت الاشارة اليها قد صار من ورائه ان أصبح لا غنى للشرق عن

الغرب كما انه لا يمكنه أن ينافسه أو يزاحمه فى هذا الشأو للاعتبارات الاقتصادية الاخرى انما هذا لايمنع بوجه من الوجوه عن احياء الصناعة الاهلية بنوع ما ولا يحول دون تجديد رواج مستحسنات مستنتجاتها المتنوعة ونفاق سوقها بين ظهر انينا وفى أسواق السودان ذلك العضو منا أو تلك المستعمرة لنا حتى لا نقضي عليها بأيدينا اكتفاء في كل شيء بالمصنوعات الاجنبية على ان من فوائد هذا الصنيع على طول المدى ايجاد روح صناعية ويد عاملة فيها بالنشاط والهمة تبعاً للرواج بما يكون من ورائه نشأة طائفه كبيرة من أرباب الصنائع والحرف البشرية المختلفة الماهرين الذين لا يوجدهم غير الرواج ونفاق سوق المصنوعات البلدية تدريجاً

وقولى «بلدية» أو «أهلية» لايقتضى الرجوع الى أشياء الصناعة القديمة الساذجة التى صارت «منسوخة» لاتلائم روح العصر ولا توافق أذواق الزمان لا أشياء ولا أساليب انما المقصود أن يوجد من وراء ذلك في البلاد « صناعة عصرية محلية تفي ببعض حاجة البلاد » من منسوجات بلدية وأدوات منزلية وغير ذلك من الاشياء الكثيرة مما قد ترى الحاجة اليه

ماسة ويعار علينا أن تصنع لنا بأيدي الغير .

وسبيل احياء الصناعة عندنا معلوم طالما جاهر به وحث عليه رجال الاصلاح من ابناء العهد السالف ورجال العصر الحاضر وهو انشاء « المكاتب او المدارس الصناعية » سواء بواسطة الحكومة السنية أو بمساعى سراة البلاد فان القطر بالحقيقة فى حاجة كبيرة الى هذا التعليم الصناعي بجانب نهضة الكتاتيب الحالية لبث التعليم البسيط اذ كلاهما ضروري وحبذا لو اخذت الغيرة والاريحية نفوس اعيان كل مديرية وسراتها فأقتدوا بأولئك الكرام الغيورين اعيان مديرية الفيوم فيما اقاموا به اخيرا من النهضة العظيمة لانشاء مدرسة صناعية فى مديريتهم على مثال ما قامت به جمعية العروة الوثقى بالاسكندرية من انشاء مدرسة « محمد على » الصناعية وان كانت كلتاهما لم تخرجا بعد الى حيز العمل .

بمثل هذه الوسائل العصرية قد يمكن لعمر الحق تخريج مئات من الصناع الماهرين الذين يخدمون البلاد والامة اجل الخدم الحيوية العصرية لا بان ينشئوا فيها « المعامل الكبيرة والفابريقات العظيمة » التي تضارع ما عند الغربيين وشركاتهم

الصناعية العظيمة بل لكى يوجدوا فى البلاد مما ينشئوه فيها من «الصناعة الصغيرة» اولا المؤسسة على الاصول والقواعد الفنية الصحيحة ملكه صناعية حرية بالاعتبار وعملا حيويا نافعاً للامة فى الحقيقة ربما بلغ الشأو والمهم على كر الايام ومر السنين وراجت معه مصنوعات البلاد فيها وفيما جاورها من اقطار الشرق القريبة كالسودان وبلاد العرب. على انه قد يلاحظ الآن ان بعض الصناعات الاهلية القديمة كصناعة نسج الاقمشة البلديه والنجارة القديمة والحفر على الاوانى النحاسية وصناعة الابنوس والخرط والتطعيم بالسن والخزف الاسيوطى الى اشباه ذلك قد صادفت فى هذه السنين الاخيرة بعض الرواج عند السياح من الاوربيين والامريكين من زوار مصر فى الشتاء ولكن شتان بين مايصنع بحسب الاساليب القديمة «لمقطوعية» بعض السياح وبين مايصنع بحسب روح الصناعة العصريه لمقطوعية الامه باكلها. على انه لو اتيح لامثال هذه الصناعات المحلية القديمه على علاتها التعضيد والتنشيط بانشاء المعارض الصناعية الاهليه والاسواق الصغيرة الدورية لا سيما في موسم السياح لاتسع نطاقها هى الاخرى ولأستصلحت احوالها ولربما انتقلت من صورة الى صورة اخرى

تصادف بها الرواج عند الامه ايضاً .

ولانتقل الآن من الصناعة بخصوصها الى فرعها المهم من التجارة البشرية القديمة المهد فى بنى الانسان ايضاً وهى في الجملة عبارة عن مشترى السلع بالجملة من مصادرها وبيعها فى الاماكن التي يكثر فيها رواج سوقها سواء بالجملة كذلك او بالقطاعي وسواء بالثمن النقد من الذهب والفضة او بطريق المبادلة والمقايضة باشياء اخرى مما يروج وينفق سوقه فى النواحي الثانيه وهى تقسم الى تجارة داخلية وتجارة خارجية وتجارة بحرية وتجارة بريه وعمالها هم عمالها المشهورون من تجار الصادر والوارد والسماسرة والمتسببين والمتسوقين واصحاب المراكب وارباب المخازن والحوانيت والبنوك فى المدن الخ

واذ ميزت التجارة من بين وجوه اسباب المعاش وجدتها من افضلها واربحها والتاجر الحازم موسع عليه قال النبي صلى الله عليه وسلم «ما املق تاجر صدوق» ولقد اشتهرت بلادنا من قديم الزمان بالتجارة مع الاقطار الاخرى بواسطة القوافل والسفن كما اشتهرت مدنها وثغورها قديماً وحديثاً برواج اسواقها وانها محط تجارة العالم الشرقى والغربي فضلاً عن تجاراتها الصغيرة

في محاصيل البلاد واشياء حاجيات العباد من سكانها وبالجملة فقد كان ولم يزل لهـذه البلاد شأن يذكر فى التجارة فى كل عصر ومع كل مصر كما ترشداليه التواريخ وتدل عليه الاحوال الجديدة وبواقي الحال من آثار التجارة القديمة من «الوكائل» و« الحواصل »و« الشون »و« الحوانيت » و « الاسواق » و«السفن أو المراكب » النيلية والبحريه الى اشباه ذلك مما لم يزل اكثره على حاله ولم يطرأ عليه عندنا تغيير عظيم يذكر او تحسين فى الجملة يشكر مع تقدم الحركة الاقتصاديه والرواج فى البلاد تقدما يكاد يلمس باليد

ولقد وجد بأزاء هذه الحالة الضعيفة للتجارة الاهلية حالة أخرى من التجارة الاجنبية التى ليس لها من الصفة المصرية غير الاسم فقبضت من عهد غير قريب على أزمة التجارة فى القطر من صادر ووارد بل ولم تقف الهمة بأهل الهمم عندهذا الحد من القبض على أعنة التجارة الكبرى حتى رأينا أهم أشياء التجارة الصغرى قد صار جله بأيدى الغربيين النشيطين أيضاً والباقى بأيدينا منها المنحصر معظمه فى أشياء المعاش وحاجيات البيوت مازال شأننا فيه قاصراً جداً لا نريد أن نسلك به طريق

الرق أو نتبع فيه نهج الاساليب العصرية واقانينها المروجة
فن التجارة فى أوروبا وأمريكا كالا يخفى علم يدرسه
المرشحون لمزاولتها فى مدارس مخصوصة كما يدرس أرباب
العلوم والصنائع المختلفة من طبية وحقوقية وهندسية وزراعية
وصناعية اصول ماهم بصدده فى مدارسه المخصوصة وليست
معاطاة التجارة بالخلق الدنىء أو المهنة التى لاشرف ولاذمة عند
متعاطيها وما قاله ابن خلدون وقرره بحق أخلاق التجار راجع
الى أحوال معينة تابعه لفساد ناشىء عن التربية أو الوسط بحكم
الضرورة فى تلك الاحوال التي بنى عليها حكمه في «المكايسة»
الواردة شرعا والذاهبة في الحياة على أنواعها كل مذهب بشروطها
أما التجارة فى حد ذاتها فلها للنجاح شروط وآداب لايمكن
ان يفوز صاحبها الفوز الصحيح الا بها ولقد تقدم فى الحديث
الكريم تلك الحكمة البالغة «ما املق تاجر صدوق» على ان من
اهم لوازمها الحذق والمهارة والنشاط ودرس فنونها المعليه واشيائها
الخصوصيه ولوكان بطريق الاختبار والاقتباس العملى المؤسس
على الاصول العلمية العامه التي لاغنى لانسان عنها فى هذا العصر
واراني لست فى حاجه الى ذكر فوائد الشركات على اختلافها

في التجارة كما في الصناعة وغيرها لان ذلك تحصيل حاصل بعد الذى نسمع ونشاهد من جليل فوائدها عند الغربيين لانه مهما كبرت همة الفرد وعظمت ثروته ورؤس امواله ومهارته فلن يوازى ذلك عمل الرؤس والايدى الكثيرة ورؤس اموالها العظيمة . ثم هناك عمل آخر مفيد كانشاء الغرف والنوادى التجارية والنشرات ومعاملة البيوت التجارية مباشرة الى غير ذلك مما فيه ضمان سير العمل مع توفير الارباح وترويج السلع والتنور في الشؤون الهامة من التجارة العمومية ولقد يأتي من وراء هذا وذاك أنه ربما أنشئت الشركات التجارية الواسعة الوطنية التى قد تزاحم الشركات الاجنبية هنا وفى السودان ويد الله مع الجماعة .وما التفكك والتحاسد والتراخي والتوانى الذى منى به الشرق والشرقيون في أعمالهم الا الخسار بعينه فليفقه تجارنا وليرتقوا فيما هم بصدده من الاسباب الرابحة

٨

﴿ فوائدنا الاقتصادية في السودان ﴾

الاستعمار — اشهر الامم الاستعمارية قديما وحديثا ـ اساليب الاستعمار فى العصور السابقة واللاحقة — اهمية السودان المصرى — الفتح الاخير — قصور الهمم فى استعمار السودان — مزايا المصرى فى السودان — التجارة والصناعة — خلاصة القول .

من أهم المسائل الارتقائية الاقتصاديه في الامم «الاستعمار» وهو كما لايخفى النزوح من بلد كثر زحامه أو تفه عيشه وضاق نطاقه الى بلد كثر خيره وراج عمله طلباً لرغد العيش وتحصيل الثروة باى من وسائل الاعمال البشرية الثلاثه الصناعة أو التجارة أو الزراعة .

والاستعمار او بعبارة أخرى صريحة المهاجرة من بلد الى بلد فى طلب الرزق امر سائغ يرشدنا التاريخ على ان المتقدمين والمتأخرين فيه سواء وان امتازت فيه امم عن امم وشعوب دون شعوب . واشهر أمة امتازت بالاستعمار والاسفار من الامم القديمة هى الامة « الفينيقية » التى كانت منازلها قديما صور وصيداً من ثغور سوريا الحديثة وأشهر مستعمراتها

« قرطاجنة » الشهيرة مكان تونس الحالية فى شمال افريقيه .

أما فى هذا العصر فقد امتازت بالسبق فى هذا الميدان الامةالانكليزيهوبعبارةالشعوب الانجلو سكسونيه فهم الذين استعمروا امريكا وهم الذين سكنوا استراليا وزيلنده الجديدة وأخرجوهامن حالالوحشية الى أنوارالمدنيه وان عيب عليهم استأصالهم شأفة سكان تلكالبلاد الاصليين من وراء ماعمروا

ولقد اقتدىبالشعبالانكليزى أوسبقه بادىء ذي بدء فىهذا العمل الاستعماري النافع كثيرمن شعوباوروبا الحديثه فبعضها اتبع اساليب جيدة فى الاستعمار فافلح وبعضها سأت حاله وسمعته فيها فلم يجن من الاستعمار شيئاً يذكركاسبانيا فى امريكا وهو لندة فى جاوه والظاهر ان الاساليب المعيبة التى اتبعها الاوروبيين في الاستعمار قديماً قد استبدلت بشكل هو اقرب الى روح العدل والانسانية منه في الازمنة السالقه ايام أجهز البيض على الحمر والسودمن سكان امريكا واستراليا والارضالجديدة مثلا مما قد لا تذكر الىجانب وسائلهوحيله فظائع أو استبدادات الفاتحين منالشرقين الذين وان كانوا قد دوخوا البلاد وارهبوا القلوبفي النواحيالتىوطئتها اقدامهم

الا انهم لم يقصدوا قصداً الفتك بارواح بنيها ليخلوا لهم الجو فيها بدعوى انهم ليسوا من الاجناس البشرية القابلة للرقى بحكم ناموس النشؤ والارتقاء

على انه مهما كان حال هؤلاء المستعمرين وهؤلاء الفاتحين فان أساليبهم القديمة هذه يظهر انها قد بعدت عن عقول ابناء هذا العصر العشرين فمن ثم صار الامريكان الاحرار من البيض ينادون بحقوق السود واضحى الاوروبيون يجاهرون بالانسانية ويسمون لاحياء ابناء العناصر الاخرى البشرية التى يحكمونها في كل مكان وان كان لم يزل يسمع بعض اصوات قد تجاهر وتنادى من حين الى حين بلزوم التضييق على تلك العناصر حتى لا تقوى ولا تقوم لها قائمة .

هذا وغير خاف أن السودان المصرى هو من مصرنا العزيزة بمثابة الروح للجسد لان منه مصدر النيل المبارك وهو كما لا يخفى حياة هذه البلاد ومعين ثروتها وسعادتها ولقد أدرك هذه الحقيقة كل الذين تولوا حكومة هذه البلاد منذ عهد القدم فكانت عنايتهم بالمحافظة على السودان عنايتهم بالحفاظ على مصر ونيلها السعيد ومن ثم فتح هذا القطر السودانى المصريون

القدماء ثم العرب ثم المرحوم محمد علي باشا الكبير الذي بحث ونقب فى ارجائه بواسطة البعثات والارساليات العلمية عما فى خباياه من المعادن النفيسة كما تصنع الآن بعض الشركات وجملة القول ان آثار استعمار المصريين للسودان ذلك العضو من بلادهم قديمة وفوائده فضلا عن ذلك عظيمة.

أى نعم ان فوائد السودان الاقتصادية بالنظر الى المصريين عظيمة جداً وها هو قد بدأ منذ فتحه الاخير بالتقدم السريع بفضل مساعي الادارة الحازمة العادلة التى تدير أعماله بواسطة رجال الاصلاح فى الحكومتين المصرية والسودانية وفى مقدمتهم جناب اللورد كرومر وسعادة الحاكم الحالى العام للسودان الجنرال السر رجينلد ونجت باشا ولقد احتفل بالامس في «بور سودان» ذلك الميناء التجارى المهم الجديد للسودان بافتتاح تلك السكة الحديدية المهمة من ذلك الثغر على البحر الاحمر الى نهر النيل وخطب فيها جناب اللورد وسعادة الحاكم العام وسعادة وكيل مجلس شورانا محمد شوار بى باشا بما يدل على ما لهذا السودان من المستقبل الزاهر والخير العميم للمصريين والسودانيين من وراء كل ما يبذل الآن من المساعي الاصلاحية ويصرف هناك

من الاموال المصرية .

لكن هذا كله يتعلق بالشأن العمومي للحكومة وخزائنها العامرة أما مايتعلق بالافراد وهممهم فان الامر فيه ما زال قاصراً جداً لانه منذ فتحت تلك البلاد فتحها الاخير والحكومة دائبة على حث الهمم المصرية على استعمار السودان واستثمار أراضيه الواسعة الخصبة واستدرار خيراته وتجارته المشهورة شيئاً فشيئاً بمقدار ما يفتح فيها من السبل والوسائط فهل نحن قابلنا هذا الصنيع بما هو جدير به من العناية والاهتمام وهو وأيم الحق من أهم مصلحتنا الاقتصادية بالنظر لاحوالنا الراهنة ؟

اني أرى جواب ذلك ويالللأسف مخجلا لانا بالرغم عن تزاحم السكان فى بلادنا المصرية وواديها الصغير وبدء صعوبة التماس العيش فيها بالنظر الى ذلك وانفتاح باب استعمار الاقطار السودانية الخصبة الرحيبة أمام الوجوه أوالهمم والاموال لم نزل متقاعسين معرضين عن ذلك لاهين عنه مما قد تفوت معه الفرص عند ما يسبقنا الغير الى اجتناء ثمار ما فتحناه بمهج رجالنا وبدرات أموالنا بل ولم نزل ننفق عليه من خزينتنا وهذا هو غاية الضعف ومنتهى الخوار

ان هناك أسباباً كثيرة ترجح كفة المصرى فى استعمار السودان واستغلال خيراته وبالتالى صلاحيته للقيام بهذا العمل والنجاح فيه ثم — أولا — لتجانس أصناف الزراعة والتربة وطرق الري النيلية — ثانياً — لتقارب الاقليم والمناخ واللغة والتقاليد مما قد ينجح معه هناك المزارع والصانع وأرباب الحرف العقلية من المصريين — ثالثاً — لشهرة المصرى بالجلد والصبر في الكدح فى تلك الاقطار مما يقدر معه ان يجنى ثم أكثر من غيره من الفوائد ناهيك ان استيطان المصريين للسودان واستعمارهم له مع تلك المشاريع التي يراد بها تحويل شطر من ماء النيل الى رى أراضي السودان يجعل الشيء راجعاً فيها الى أهله الاحق به من غيرهم . هذه هى أهم الامتيازات التى ترجح شأن نجاحنا هناك متى أطرحنا الكسل وسعى أرباب الاموال والمحترفات منا الى هذا الخير العميم المتوفرة فيه شروط الراحة والنظام بفضل الادارة العادلة التي تدير أعمال السودان الآن

وزد على ذلك مسئلة التجارة فانها ستفتح أبوابها فى السودان لتجارة كل الامم كما يقول جناب اللورد كرومر طبقاً لمبادىء حرية التجارة المصرية ونحن وان يكن شأننا فى هذا الميدان

لم يزل متأخراً حتى فى نفس بلادنا غير انه يجب أن نزاحم ونجعل لنا مركزاً فى تجارة السودان ومحصولاته وبضاعاته الصغيرة لما ان ورائها المكاسب والارباح الاكيدة على طول المدى لا سيما وانا بأحوالنا التي تقرب من أحوال السودانيين لغة وتقاليداً كما تقدم يمكن أن ننجح فى هذا السبيل أيضاً أكثر من غيرنا بقدر حالنا وسعة رؤس أموالنا الادبية والمادية

والخلاصة أن فوائدنا الاقتصاديه في السودان عظيمة ويمكن متى أطرحنا أسباب الكسل أن نجنى منها ثماراً جمة وصغر بلدنا وكثرة سكانه قاضيان علينا بذلك طلباً للمتسع من العيش والحكومة مساعدة لنا فيه بكل ما فى امكانها أو بقدر ماتسمح لهابه الظروف الحالية واذا كان جماعة الفرنساويين قد صاروا الآن على ما اشتهروابه من حب الوطن الفرنساوى يفضلون النقلة والمهاجرة منه الى مستعمراتهم خصوصاً الافريقية منها على بعد المنأى واختلاف المزاج طلباً للمتسع من الارزاق والعظيم من مرافق الحياة والانكليز يضربون لتلك الغاية فى مناكب الارض بين طولها والعرض والالمان يرون رأيهم ويحذون حذوهم بل وهؤلاء أخواننا السوريون الشرقيون مثلنا

ينزحون كل يوم فوجا اثر فوج الى الاقطار الامريكية ونحوها بقصد الاثراء مع أن بلادهم الجميلة فى حاجة الى الايدى الكثيرة حتى تدر خيراتها العظيمة فهل لا يكون لنا نحن شيء من تلك القوة وذلك النشاط الحيوي والاقدام نعمل بهما و نتوكأ عليهما حتى نجنى خيرات السودان ذلك البلد القريب منا بل الشطر أو العضو الكريم من ديارنا ؟

٩

﴿حالنا فى العلم والدين﴾

نشأة العلوم والمعارف من سماوية وارضية — العلوم والمعارف مجموع ما حصله الانسان — فاضلها ومتضولها — مصر ينبوع العلوم — الدور الاسلامى فيها وما تبعه من ادوار التأخر — الدين الاسلامي وما التصق به — شهادة مسيحى بحق الاسلام — وسائل الرقى العقلى ووسائطه العصرية — ترجمة كتب العلوم والمعارف العصرية من الوسائل المفيدة .

يمتاز الانسان عن الحيوان الاعجم بما وهبه البارى تعالى من قوة العقل والفكر وهذه الميزة جعلته بما خص به من قوة النطق ينشد الحقيقة والسعادة ويتحرى كل ما من شأنه أن يؤدى اليهما ويصل به الى حظيرتها فكان من وراء هذا الجهاد على طول مدى الدهور الماضية نشأة للعلوم والمعارف وتقدمها

على اختلاف أنواعها وتباين غاياتها مما كان في جملته داعية تهذيب العقول والنفوس ووجود الفخار فى الامم كما يقول بستر.

ولقد ساعد على ذلك بل كان من أمهات الرق بعثة الانبياء والرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام في الامم والشعوب مبشرين ومنذرين بالشرائع الالهية والاحكام السماوية الموجبة لسعادة الدارين فكان من ذلك قوة أخرى أفادت الانسان العلوم الشرعية والاخلاق الطاهرة المرضية والآراء الصحيحة والآداب المنيفة المبنية على السنن الالهى رحمة من الله تعالى وبراً بالعباد من بنى آدم المكرمين ولقد قال برناردن دوسنتيير الكاتب الفرنسي الشهير « المعارف عون من السماء »

فالعلوم والمعارف هي اذن مجمل بل كل فروع ما حصله الانسان من المعلومات والمتحصلات المعنوية المكتسبة المستفادة بالطرق المختلفة من المشاهدات والمسموعات والاستنتاجات وهى تطلق أيضاً من وجه أخص على ما كيفه الانسان بواسطة التحليل والتركيب من تلك المعلومات بالكيفيات المخصوصة بما يناسب حاله تبعاً للقواعد المستنبطة والنواميس المكتشفة لتلك الحقائق العلمية أو المصطلح عليها فيها عنده.

وكما تختلف العلوم والمعارف كما لايخفى غاية تفترق أيضاً
فائدة للانسان فبعضها أمس فى الحاجة من بعض بالنظر اليه
وبالنظر أيضاً الى اختلاف المشارب والوجهات والاذواق
العصرية المبنية على ما للظروف من الحكم عادة فى الامم والمقاصد
غير أنه قد يقال فى الجملة الآن أن ما كان منها عملياً أى أمس
بأمور الحياة الدنيا وسلامة الانسان والهيئة من الشرور يفضل
ما هو أبعد من ذلك غاية أوماهو في حكم النظرى المحض منها
هذا ويعلم كل مطلع على تاريخ هذه الامة دارس لاحوالنا
التاريخية فى تقلباتها القديمة والوسطى والحديثة أن بلادنا المصريه
كانت قديماً ينبوع العلوم والمعارف الانسانية فمنها بزغت شمسها
ومنها انتشر نورها على الآفاق فأنارت العالم القديم وبقبس
من شهابها استضاءت أمة اليونان القديمة العظيمة فيما امتازت
به وتوسعت فيه من العلوم وبرزت فيه خصوصاً من الفلسفة
وحكمة الحكماء

ولقد كان أيضاً للقاهرة و«الازهر» المعمور أبان عز الدول
الاسلامية وازدهائها القدم الراسخة والقدح المعلى فيما انتشر
على أبناء القرون الوسطى من العلوم والمعارف والفلسفة والادب

الاسلامي العربي. غير انه لما دالت الدول ودخلت البلاد في دور الفتن الشديدة وأزمنة القلاقل والتقلبات الاجتماعية الفاسدة تقلص من ثم شيئاً فشيئا ظل العلوم وأفلت شمس المعارف رويداً رويداً الى ان بدأ يأخذ بناصرها ويجدد دارسها على الطريقة الحديثة رأس العائلة الخديوية العلوية الكريمة جد مولانا العباس حفظه الله ذلك المصلح الكبير الحاج محمد على باشا كما سيأتى مزيد بيانه .

وأراني لست فى حاجة الى القول بأن الجهل الذى خيم على العقول من جراء ما تقلب على الامة من تلك الاحوال الزمانية قد جعلها تهجر شيئا فشيئا العلوم والمعارف وتتخبط فى دياجير الضلالات ومهامه السفاسف والاوهام بما ساعد كثيراً كما تقدم القول فيه فى أوائل هذه الرسالة على انطفاء جمرة العقول وتقهقر شأن الامة الذاتى في أمورها الادبية والمادية ولا غرو فالجهل موت والعلم حياة مزهرة ولولا ما نعلم او لم يصرح به التاريخ من أن السلطات القديمة عندنا ما كانت لتضيق دائرة العلم والمعرفة على الامة بقصد السوء بابقائها في الجهل لرميناها بما رمى به جماعة المؤلفين والفلاسفة الغربيين تلك

السلطات الاوربية الغشومة التي أعقبتها النظامات الحديثة وكانت ترمى على مايقال الى تلك المقاصد الخبيثة .

لقد طبق الاسلام هذه الامة بمبادئه الحقة السامية وأصوله الكريمة المبنية على أجل قواعد الاجتماع البشرى ونواميس العمران الالهى فتغذت منه النفوس وارتشفت من رحيق القرآن العقول واستشفت بطبه الصدور ولكن للاحوال التي لحقت به سواء من قبل السلطات ومنازعاتها أو الاوهام ومدسوساتها ساعدت مع الجهل وتخييمه على العقول على أماتة الاصول الحقة منه واحياء البدع والسفاسف اللاحقة من مقتبسات باقى الامم التى دخلت في الاسلام أو خالطها أهله ومازجوها مما كان منه لسوء الحظ إحلال البدع والسفاسف نفوس الجمهور من الامة الاسلامية مكان الاصول الحقة أو اعتبارها مثلها دينياً قوة وحكما

ان الواقف على حالنا معاشر أهل الاسلام فى هذا العصر ليندهش ويحار وفي الحقيقة فانه ليس أعجب من جهلة المسلمين العصريين يدعون الدين وهم بعد لا يمسكون بأهم أصوله ولا يقيمون ضروريات حدوده ولا يتخلقون بأدابه لتيهانهم جهلا وعمهاً في بيداء الاوهام والسفاسف التى تجرهم الى الضلالات

بسلاسل التقليد الموروث من أزمنة الجهل والانحطاط وهم في ذلك نادّون عن الدين باسم الدين !

الاسلام دين الفطرة . دين الحق دين . الاختلاق الكاملة الانسانية . دين الشرائع الجليلة الصالحة لكل عصر (حتى خالها لجودتها بعض باحثي الاوربيين مستفادة من الشرائع الرومانية كالشرائع الاوربية الحديثة) دين الواجبات الانسانية والنظامات الاجتماعية على اكمل الوجوه دين الطبيعة الذى طالما نشده وينشده جماعة العلماء والفلاسفة وأخيراً دين العلم الذى يطلبه الرقى ويتحراه التمدن الصحيح في كل عصر .

القرآن المجيد حبل الله المتين — ولا ازيدك بيانا بجلاله قدره ورفعة شأنه وسمو مكانه — كما صلح لسلفنا واصلح من حالهم في دنياهم واخراهم هو صالح كذلك لان ينتشلنا نحن الاخرين من أوحالنا وسوء احوالنا التى اوقعتنا فيها عصور الانحطاط والبعد بالدين عن سبيله الاقوم ومحجته البيضاء النقية

ان السواد الاعظم من الامة الاسلامية يجهل كما تقدم حقيقة الاسلام وسمو آدابه ومرامى شريف غاياته الاجتماعية والادبية التى هى فى الحقيقة روح الدين فيما عدا الاتيان

بالشهادتين بطريق التقليد السطحى والخبط خبط عشواء فى
مسائل العبادات البدنية لا يدرى اكثر الناس من عامة المسلمين
ما بنى عليه الاسلام من محاسن الاخلاق المرضيه والآداب
العالية الاجتماعية والانسانيه (وقد بدء بعض الاوربيين يعترفون
للاسلام بها) فلذا نرى اكثر عوام المسلمين وقد زاد الطين بلة
الجهل الضارب اطنابه بينهم يهيمون في الضلالات وسفاسف
ما يشتم منه فارغ التعصبات الدالة على نقص في الدين فلخير هذا
الدين ولخير ما نبغي من دنيانا به ومنهاله يجب أن تمحص بطريق
الارشاد وعلى سبيل الوعظ كتابة وأقوالا الحقائق وتحرى من
ثم المنافع ويبين الغث من السمين فى الدين مما ورد في القرآن
والسنة الصحيحة وعن السلف الصالح رضوان الله عنهم ممن
يقتدى بأقوالهم ويستمد على ارائهم بما فيه جلب الفوائد ودرأ
المساوىء والشرور ومراعاة المصالح العصرية والمقتضيات
الزمانية على مانبه عليه الكثير من أجله العلماء المتقدمين والمتأخرين
ونعم هذا الجهاد في سبيل الله جهاد الجهالات والشرور اللاحقة
بالانفس وغواياتها مما سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم
الجهاد الاكبر .

ولقد أورد القاضي البلجيكي باحد محاكم مصر المختلطه سابقاً الذى اشتهر بالكتاب الذى ألفه منذ عدة أعوام تحت عنوان « مصر واوروبا » ولم يذكر عليه اسمه فى كتابه المشار اليه فى خلاصة بحثه فى الاسلام شهادة بحق هذا الدين ونصحية لاهله نأتى على قطعة منها هنا قال :

« يمكننا ان نستخلص من هذا ان للاسلام مقاما عظيما ومنزلة سامية بين الاديان الحية القائمة فما بني عليه من التوحيد المطلق من اسمى ما يكون وليس عليه فيه من ملام وأدبه وخلقه خلق القرآن وان يكن ليس من قبيل الفلسفة التصورية لكنه خالص من الشوائب وجاف لا تصنع فيه وكاف بالنظر الى ما يتعلق بالحياة الصحيحة الواقعية. وان العبادة والتقوى الاسلامية نقية خالصة وذات تعمق واستغراق وحسن توجه وصدق نية. والعلاقة فى الاسلام بين المؤمن والله تعالى ليست علاقة الرقيق بالمالك الغشوم وانما هى علاقة الخلق الكريم بالخالق العظيم ذى العدل والرحمة الواسعة فالنفوذ الدينى والادبى للاسلام كان جيداً صالحا بما انطوى تحته من الركون الى جانب الله والاعتماد والاستسلام الى مشيئته تعالى. الاسلام ليس بالجبرى

المحض ولا هو بالذى يحمل تبعة التأخر والتقهقر اللاحق الآن
باهل الشرق واقوامه. ولقد يمكن للاسلام بواسطة العود الى
القرآن ان يتخلص من شوائب الاوهام وينفض عن نفسه غبار
الضلالات التى الصقتها بأهله ايدى التقاليد كما ويحذف منه
ايضاً ذلك التوسع الذى أوجده التشديد وكثرة التعمق في
الاعمال الدينية واوجب وقوف تقدم الحقوق العائلية من الوجهة
القودية والمدنية وانه بالرجوع الى نصوص القرآن ينطلق الفكر
الانساني من عقاله منفجرة ينابيعه ليس باقل مما ينال الجمعية
من خير ذلك . والاسلام باصوله ليس بالعدو المبغض للعلوم
والفلسفة فهو لا يخشى بأس العلم ولا اتساع نطاق حرية الفكر
الانسانى بالنسبة الى توحيده أو الاعتقاد بالمعاد من الحياة
والجزاء في الدار الاخرة أو بالاسرار القرآنية وكشفها ولقد
يصير الاسلام بذلك ما يمكن تسميته بالدين المصفى متى ما رجع
فى تلك الاشياء الخيالية الى جانب الحق والصواب فيها بانزالها
منزلتها واعتبار ما جاء منها في القرآن صوراً متأولة ورسوما
محمولة على ان لها باطناً كما لها ظاهراً ... » اه

فترى من هذا ان كبار علماء الغرب الذين درسوا الاسلام

درس منزهه عن الغرض والتعصب عرفوا ككبار علمائنا الداء ووصفوا على قدر ما عرفوا الدواء ولا غرو فالدين الاسلامى اذا ماروعى بتلك الحالة من التنور والتوسط ووقوف الانسان فيه في الحد الوسط من الافراط والتفريط مع المامه بشيء من العلوم الضروريه والمعارف النافعة العصرية كان له من مجموع ذلك للجهاد العملي في الحياة عدة يالها من عدة وسلاح ما اعظمه من سلاح .

بما ذا نال هذه الرغائب ونحظى بتلك الاماني والآمال وحالنا هو حالنا ؟ لا ريب ان طريق ذلك ووسيلته العصرية العظمى هو تحسين حال التربية القومية العصرية العلمية والعملية وهذه تتحقق بمثل نهضة الكتاتيب الحاليه ومراعاة ذلك فيها وتعميمها وانتشار المدارس الاهلية التي تربى الناشئة تربية علمية وعملية مزدوجة دنيوية واخروية لا على قاعدة المزج وجعل كل شيء ملصقاً بالدين مخلوطا به اذ تلك طريقة عقيمة واسلوب ربما انتج الضرر على غير طلبة العلوم الدينية المحضة بل الغاية هو ان تفرد الدروس أى أهم الاصول والحقائق الدينية بالمعرفة الصحيحة والتنوير الجيد ثم تغذى النفوس بمبادئ العلوم والمعارف

الضرورية فيما يتعلق باشياء هذه الحياة الدنيا خصوصا فيما يتعلق باشيائها عندنا فاذا تأسس المرء في تربيته العلمية والعملية على ذينك الاصلين العظيمين كان له من وراء ذلك شأن وجودي عظيم وحيثية عملية قوية نافعة في الحياة واسبابها جلبت له كل الخير وأبعدت عنه كل الضير

نحن في حالنا الراهنة ينقصنا كثير من أشياء الرقي الادبي العصري فالعلوم والمعارف بيننا كاسدة السوق اذا وجد من يؤلف ويصنف فلا يوجد من يقرأ حال عجيب وأمر مدهش غريب للزمان وحده الحكم فيه لان الطفرة محال وامة قد لا يتجاوز عدد القارئين فيها ١٠ في المائة لاينبغي انه تلام أويطلب منها ما لا تقدر عليه وما الفرج في رواج بضاعة العلم ونفاق سوق المعارف الا بعد ما يجني من ثمار تعميم المعارف الذي تبشر باكورته من مشروع الكتاتيب الكريم بالخير العميم ولعمري انه بعد ان ترجح كفة العلم على كفة الجهل لا ريب قد تروج على أتم وجه وأحسن حال بضاعة الادب والعلم في ديارنا وهناك يوجد بالحقيقة من يؤلف ويصنف كما يوجد بالضرورة من يقرأ ويقدر المعارف وكنوزها الثمينة حق قدرها

وقولى هذا فى الواقع لا ينافى انا قد قطعنا بفتآتنا المتعلمة المتنورة حتى هذه الغاية شوطاً عظيماً في الرقى العقلى الادبى ونفاق سوق العلوم والمعارف العصرية على قدر الحال التى ندرج فيها تدريجاً فان هـذا ليدل عليه دلالة واضحة اطراد رقى الجرائد والمطابع وانتشار الكتب الكثيرة من قديمة وحديثة وان كان لم يزل ينقصنا اشياء كثيرة جداً لبلوغ شاؤ ذلك الرقى العقلى الصيحح وإحلاله المنزلة الرفيعة التى يجب ان يكون عليها من نفوسنا وافئدتنا.

وهناك وسيلة اراها من خير الوسائل فى تقوية ذلك الرقى الادبي العلمى عندنا والانتهاج به نهج الذوق العصرى في علومه ومعارفه وآدابه وأذواقه الا وهى ترجمة خيرة ما يظهر من المؤلفات والمصنفات التى تظهر فى الغرب أو يعتمدون عليها هناك فى رقيهم العقلى (لا الروايات فقط لاسيما رديثها مما يجب تجنبه) وهذا السبيل قد سلكه العصر الذي تقدمنا في هذه الديار كما سلكته الامة فى عصور ازدهائها القديمة وليس فيه من عار بالنظر لحالنا الراهنة مادام الغرب قدوتنا فى كل الشؤون فهل يصعب علينا بعد ذلك ان نكون تابعيه فى العلوم والمعارف ومرددى

صداه فى نهضته العقلية الحاليه بما يناسب حالنا وفائدتنا الذاتية
ولا مصدر فى الحقيقةاليوم لتلك المعارف والعلوم البشرية الا
تلك الاقطار وهاتيك النواحي والحكمة كما فى الحديث الشريف
ضالة المؤمن ينشدها اني وجدها ويقول الكاتب الفرنسي الكبير
فولتير الشهير « المعارف تحيي الناشئة وتربى الشبيبة وتحدث
مسارما بعدهما من الاعمار »

١٠

﴿ مبلغنا من الادب والفنون الجميلة ﴾

الادب بحسب الاصطلاح — الادب مفخرة الامم وعنوان رقيها — هل ينكر فضل الادب وهومشكاة العقول ومغذى الافكار — تعداد المآثر فى الادب العربى وعصوره — كيف نسير نحن ونصلح من أدبنا المصرى — الغناء والموسيقى — شيء بخصوص فن التصوير والنحت وشكوى مثل فرنسا من تأخرها فى الفنون فكيف بنا .

الادب بحسب الاصطلاح أو التعريف الغربى فرع العلوم البشرية العظيمة بما فيه الفلسفة واللغة والبلاغة والتاريخ والشعر والفنون الجميلة من بين علوم الادب ما شمل الشعر على اختلاف فنونه والموسيقى والغناء ثم فن التصوير الخ.

والادب في كل أمة متمدنة نخارها العظيم وهو تابع لها في التقدم والتأخر والرقي والانحطاط والاذواق والعوائدوان شئت فقل انه في الامم ميزان تعرف به أحوالها ومقدارماهي عليه منها قوة وضعفاً وهو بذلك قابل للتغير والنمو والموت والحياة تقهقراً وتجدداً تبعاً لما يعرض لافكار الامة وأحوالها الادبية والاجتماعية فلا غرو اذا قال عنه «بونالد» الفيلسوف الفرنسي أنه عنوان الجمعية البشرية وصحيفة أحوالها .

ولقد انكر منكر في الغرب من عدة سنين على الإدب فضله ومزاياه على بني الانسان بدعوى انه تفضله العلوم والمعارف النافعة الخارجة عن دائرته كالعلوم الطبيعية والرياضية ونحوهاوانه من قبيل البذخ أو الترف الزائد الذي يجب تأخيره اشتغالا ومزاولة — تلك فكرة ماأردأها وأحطها وأشأمها لانه باعتبار أنه آلة الفكر ومرآة العقل الانساني ترى انه لاشيء من تلك العلوم أو الفنون الا وهو محتاج اليه أو مندمج في صف هذا الادب وصناعته الآلية وزد على ذلك أن منه ما هو من أهم مايكون في تنظيم الحياة البشرية وتقويتها وسرد أحوالها الصحيحة والفاسدة وعواطفها الكريمة وشرورها الجسيمة

كالفلسفة والشعر والتاريخ والقصص والقطع التشخصية وهذه وتلك جميعها تستمد قوتها من علوم اللغة كالبلاغة الآلية وتغترف من بحارها وصناعاتها ولو جردت مثل الامة الفرنساوية من آدابها التالدة منها والطريفه (كلاسيك وورومانتيك) اكتفاء بما عندها وحظيت به من العلوم والمعارف الطبيعية والرياضية واشباهها لما قوى على رد كيدها بل وتقهقرها أية قوة أخرى بعدان ذاقت لذة الادب والشعر والقصص والروايات التشخصية والموسيقي عقولها وألفته أذواقها .

والادب مشكاة الامم ومصباح الشعوب الراقية واصوله كامنة بنوع ما فى الشعوب غير الراقية ولما كان سبب كل رقى وواسطة نجاح الشعوب فلا جرم كان مادة سرور الانفس وغذاء الارواح ومصدر حياة الخيال وجودة التصور وهو اذا تعلق بأذيال الحقيقة سالت انهاره فى الخيال وبحاره الواسعة . وكما تطرب النفوس اشعاره اللذيذه ترهب القلوب وتخشع النفوس مواعظه الجدية وحكمه البالغة وفصاحاته التى تأخذ بالالباب.

ولولا الادب ومزاولته وصناعاته لعاشت الامم ومضت العصور فيها وهى خاملة الذكر غير تاركة ما تشتهر أو تذكر به

على مر الدهور وكر الاجيال غير ذكرى رجال التاريخ ان كانت من الامم الحربية أو ما أشبه ذلك وهؤلاء قد يكون منهم من يستحق بالحق تلخيد الذكر ومنهم من لا يستحقه

فتمديد فضائل علم الادب ومزاياه على بنى البشر هو عبارة عن سرد أحوال الارتقاء في جميع أدواره الاجتماعية والاصلاحات الادبية التى لحقت بهم فى تضاعيف تلك العصور فيرى الانسان من تلك الصورة كيف ترقى الفكر وتدفقت سيوله بالحكمة بواسطة فصاحة اللسان.وكيف ترقى هذا اللسان وتهذب وعرف كيف يعبر عما فى الجنان بالاساليب البليغة والفصاحات العجيبة . بل كيف اصلح شؤون الامم الادبية والاجتماعية وهذب الاخلاق وراد العقول وساس النفوس ونظم الاحوال ورقق الشعور وأصلح الاذواق ورفع مراتب الناس وخلد ذكر أهل الفضل والمعرفة بجانب ذكر رجال التاريخ فجعل اسم « ارسطو » بجانب اسم «الاسكندر» واسم «فرجيل» الشاعر الرومانى الشهير بجانب اسم «بومبي» القائد العظيم وصير مثلا اسم «المتنبي» أشهر من اسم «سيف الدولة» أو ممدوحه الاول «كافور»

وجملة القول ان التمدن الانساني ليعزى الى الادب كما يعزى الى النظام والاقليم والدين وان الامم باقية ما بقيت آدابها حتى ، ان المنقرضة منها لخالدة الذكر باقية الروح ببقاء آدابها المودعة بطون الاسفار والكتب وتنافس الامم او اللغات الحية فيها . ثم لما كان لكل عصر وجيل شأنه الاجتماعي وحالته الادبية لذلك كان الادب وفنونه قابلا للتغير تبعاً لتغير الاحوال والاوصاف . متجدد الرقي بتجدد الرقي يتدرج في ذلك من حسن الى احسن ومن ظريف الى اظرف مالم يقف في وجهه ما يعترضه ويصده عن اطراد سبل الرقي في الفكر خصوصاً واذا تأملت ذلك عرفت ان رقي الاذواق العصرية هي التي تربي الملكات الشعرية والفلسفية بعد التضلع من الاصول وتمد افكار الشعراء والحكماء ومعانيهم ايما امداد فلذلك تجلت في كل عصر من منشآت ادبائه ومنظومات شعرائه ما كان عليه ذلك العصر من درجة الرقي وقوة الفكر ولاغرو فقد تقدم في اول هذا الفصل ان الادب ميزان تعرف به اقدار الامم ومرآة تعكس صورة ما كانت او ماهي عليه من سمو الافكار ومتانة الاحوال ورفعة الاخلاق الاجتماعية او انحطاط شأنها في ذلك كله

وشاهد ذلك انا لو فتحنا مثـلا احد دواوين شعراء المتقدمين من عصر الجاهلية او اوائل عصر الاسلام لرأينا فيها فضلا عن جزالة الالفاظ وفصاحة العبارات وسمو المعـاني وطمأنينة النفس وجودة الفكر والتروح بنسمات الحرية الخالصة من الشوائب والتكلفات والاجهاد ثم لو قارنا هذا منها باشعار او كتابات اهل الادب من شعراء ومتأدبي ابناء الدول التي تلت هذه العصور وقد اختلت بعد احوالها الاجتماعية والادبية فصارت بالرغم عن تأسس الادب على اصوله المستنبطه — على غير ما كان يعهد فيها في الجاهلية او صدر الاسلام رأينا فرقا عظيما وبونا شاسعاً مما يضاد ذلك من الابتذال والتكلف وشناعة المدح وبشاعة الذم الى غير ذلك مما يعرفه كل باحث مدقق من ابناء العصر مما قد يعد معه التاريخ في تسجيل أحوال الامة السابقة في تغيراتها وتقلباتها العظيمة التالي لهذه المادة الغزيرة للمؤرخ الماهر وصاحب فلسفة التاريخ البشري .

وعلى ذكر أمتنا العربية أقول غير خاف أن العرب قد برعوا هم الآخرون في فنون الادب بل اني أقول بما يقول به كل بني قومي ويفتخرون به انهم قد سبقوا أهل الغرب فيه أبان

ازدهاء الدولة الاسلامية شوطاً بعيداً. فقد برعوا في فن النظم والنثر وأخذوا من الحكمة بأوفر نصيب وذهبوا في جميع فنون الادب وسمو المعاني والافكار كل مذهب. وهم وان كانوا قد أغفلوا أحد فروع الفنون الجميلة أي فن التصوير فقد ضارعوا اليونان وورثوا القدماء من الاعاجم في الادب الذي كان مستمد أدب الغرب الحديث الذي قد صار لنا الآن بنوع ما قدوة ومستمدا.

لقد أتى السلف من أبناء العربية في الشعر — ذلك التجسيم الروحاني القلبي للمعاني في قوالب اللفظ الذي يصعد تاريخه الى أوائل عهد الانسانية وقاله الانسان في أتراحه كما تغنى به في افراحه — بالمعجب والمطرب معنى ومبنى مدحاً ونسيباً ورثاء وهجواً ووصفاً الخ حتى يكاد أنا نجزم القول بأنهم ما تركوا للاواخر في ذلك باباً وان تفاوتوا في المعاني والمباني بحسب الازمنة والامكنة والاذواق وبالتالي بحسب التجربات العصرية والحوادث والتقلبات التاريخية مما تقدم لنا بيان تأثيره في الامة ولغتها وبلاغات بلغائها فمن ثم كان عصر الجاهلية وعصر المخضرمين أو المولدين وعصر الفلسفة وعصور الانحطاط

وعصر النهضة الحديثة .

وماجري على النظم جرى أيضاً على النثر وافترق هو الآخر بحسب تلك الاحوال الى عصر العربية الفصحي وعصر ازدهاء الادب العربى والحكمة والفلسفة الاسلامية ودور الانحطاط أو الفهاهــة الدارجة والسماجة اللاحقة ثم عصر التراجع الحالى .

ومهما يكن من تلك الاحوال التى غيرت فى أشيائنا وبضاعتنا من الادب فقد خلفت لنا عصورها المتوالية ميراثاً ثميناً وكنزاً أدبياً عظيما يجب علينا أن نحييه ونجدد من دوارس معالمه لكى نحيا الحياة الادبية الطيبة ونزّين بمادتها بين أمم العصر ذات الآداب الجميلة.

وليس معنى هذا انه يلزم أن نقتدى بالاسلاف فيما ذهبوا فيه وولجوا بابه من المعانى والمبانى حذو النعل بالنعل فهذا لعمرى لا يعد في شيء تقدما بل هو وقوف لا تحكم به ضرورة لان أشيائنا غير أشيائهم وموضوعاتنا بنوع ما غير موضوعاتهم. كما وان لا نصنع مثل ماصنع الغربيون بالافتراق فرقتين فرقة تستحسن « التليد » (كلاسيك) في طريقة الادب المصرى وفرقة —

وزعيمها فيكتور هوجو الكاتب والفيلسوف الفرنسي الشهير نفضل ونختار « الطريف » (رومانتيك) من طرائقه بل الذي يلزمنا ـ ولغتنا غير لغاتهم ـ هو «الانتقاء» لاجسن الاساليب الجامعة وأجل المعاني المناسبة لروح العصر وذوقه وبذلك يهجر المبتذل والمهجور وما في حكم المعدوم ونرمى خصوصاً فى معانينا وأغراضنا الشعرية الى أشياء العصر وأحواله وآدابه واميـاله الحقة مع اجلالنا لمقام نوابغ متقدمينا وثلة متأخرينا الخالدى الذكر كالمتنبى وأبى تمام والبحترى والفيلسوف أبى العلاء المعرى وابن المقفع والجاحظ واضرابهم ممن سبقت عصورهم أيام صدر الاسلام وأبان عز الدولة الاسلامية ونوابغ العصر الجديد ممن جزلت ألفاظهم ورقت معانيهم فكان لها فى القلوب منازل ومن النفوس الكريمة والاذواق السليمة اخدان .

هذا والذي قلت من ضرورة التغيير والتبديل فى الشعر أو الترقى بالادب العصرى الى العلاء لتبشر الاحوال الراهنة فى « وسطنا العربى » الحديث بانا سائرون فيه طارقو باب القول بلزوم سلوك طريقه وانتهاج منهاجه بل وقد سلك جماعة شعراء العصر وادبائه المجيدين سبيله فى أشعارهم ومنظوماتهم الجديدة

خصوصاً اذ النثر قد قضت بتحسين حاله ورفع شأنه بنوع ما
الضرورة من الاحتكاك العصري وما نهضة الجرائد الكبرى
الحالية فى سمو انشائها ورفعة معانيها وجودة مواضيعها الحية
الا روحه وعماده فى اصلاح حال اللسان العربى الشريف ورده
الى اصول بلاغته الاولى ونخاره العظيم من القدرة والصلاحية
للعصر والبعد بالامة بواسطة ذلك عن سلوك ذلك النهج
المسترذل الذى مالت اليه نفوس الادباء فى العصور المتأخرة
عصور الرخاوة او الانحطاط مما يسمونه بالمحسنات اللفظية من
السجع والترصيع خصوصاً للذي يتكلف له فيها وهى بعد لا
تبدو الاسجعة المبنى مشوشة المعنى ولله ما احلى ما يأتى عفواً
فيها بلا تكلف أو بلا كبير التزام .

أما الموسيقى أو الغناء فهما ذلك الفن الجميل الذي توقع فيه
الالحان بنوع من التناسب والتوفيق المخصوص يطرق الاسماع
فيطربها وينفذ الى القلوب كالشعر فيحييها ويدخل الى الالباب
فينعشها والى النفوس فيبعث بها الى الطرب والنشاط وجودة
التصور والخيال والشعور والاذواق . ففن هذا شأنه مع بنى
آدم لاعجب اذا وجدت اصوله فى كل بقاع الارض وعند

جميع الشعوب متمدنة وغير متمدنة بحسب احوالها واختلاف
اذواقها وأقاليمها فكان له عند المصريين والاشورين واليهود
واليونان والرومان والعرب وغيرهم شأن كبير وخطر جسيم
وأهل الغرب الآن يحلونه المنزلة العظمى من نفوسهم وقد
أجل قدره ومدحه فلاسفتهم وحكمائهم وبلغاء كتابهم كما مدحه
المتقدمون من العرب قال الفيلسوف روسو «الموسيقى طبيعية
للانسان كالنطق والظاهر انها أوجدت لتزين وجوده واذ كان
التصوير أقرب الى الطبيعة فالموسيقى أقرب منه الى الصناعة
البشرية» وقالت مدام دوستائل الكاتبة الافرنسية الشهيرة
«ان الموسيقي من بين كل الفنون الجميلة هي ذلك الفن الجميل
الذى يؤثر مباشرة على الروح» وقال بارتلمي الشهير «لما كانت
الموسيقى غير مفارقة للشعر فهى قد تستعيره جماله بل قل بالاولى
انها تعيره مالها من محاسن»

ونحن يتنازعنا الآن في فن الموسيقى أو الغناء العربى
عاملان أحدهما عامل تفضيل القديم فى الغناء أو الموسيقي الذى
شببنا عليه وتعودناه عن الاسلاف وصار بنوع ما لاعتبارات
كثيرة لايناسب فى كله الرقى العصرى وأذواقه وعامل اختيار

الجديد تبعاً لسنة الترقي أو اختيار الافضل في جودة الاثر وتربية
الاذواق والنفوس لا سيما وان فن الموسيقى الحديث مؤسس
على أصول وقواعد اصطلاحية تبين بالعلامات المشهورة ليسهل
توقيعها ويحفظ ضربها على اني لا إخال التوفيق بينهما عسيراً
وكثيراً ما نسمع في هذه السنين الاخيرة خصوصاً من أن بعض
الفضلاء من موسيقينا قد يردون الاغاني العربية وادوارها —
التي يجب ان يترقى فيها أيضاً من سماجة القديم من الاقتصار على
العشق والغرام الى القطع الغنائيه ذات الفوائد في الحياة ومسارها
وجمال الطبيعة — ويضبطون تلحينها وتوقيعها بالعلامات
الافرنجية الحديثة مما يحسب لهم فضلاً على فضل فضلاً عن انه
يبشر بقرب زمان انتهاج النهج العصري في فن الموسيقي العربية
الحديثة وكثرة غواته ومعينيه من الشعراء مراعاة لاختيار
الاحسن وترقياً مع الزمان وأذواقه الجيدة ومساره الحسنة المفيدة
أما فن التصوير ذلك الفن العملي الجميل الذى زاوله جماعة
البشر في كل الامم منذ عهد القدم والذاهب في تصوير الطبيعة
وتمثيل الذوات والحوادث كل مذهب كيفيات والواناً وقد الحق
به حديثاً فن التصوير الشمسي فهو من ضروب التسلية والكسب

اديباً ومادياً اذ من صفات المصور الماهر ان يكون صاحب ذكاء وجودة فى الحكم وهدؤ فى النفس ونبالة فى الفؤاد ورقة في الاحساس ومحبة فى العمل وما هو بصدده من الفن .

وهذا الفن عملى اكثر منه علمى قال فولتير الشهير « التصوير فن من فنون التسلية واللهو وكثير الكتب التى ألفت فيه وصنفت بواسطة جماعة العارفين به قد لا تفيد المشتغل به اكثر مما يفيده اياه نظرة واحدة منه فى احدى الصور التى أبرزتها يد روفائيل »

ويلحق بفن التصوير «النحيت» وهو فرع الفنون الجميلة المرتبط بفن العمارة وغيرها وهو قديم العهد عند المصريين كالتصوير حتى يقال ان مصر هى مخترعتهما كليهما وهو يقتضي الدقة والتأمل فيما ابرزته ايدى و « أزاميل » كبار النحاتين فى تدقيقاتهم فى تمثيل الحقيقة التمثيليه طبق الاصل . والغاية من فن النحيت تخليدا لذكر للكبار وتمثيل الاحوال وتشخيص الفضائل وتجسيم الرذائل للعبرة او لاظهار البراعة والمهارة الذوقية في الفنون الجميلة على اختلاف محاسنها التى هى احدى عنوانات تقدم الامم ورقيها . ولقد صار هذا الفن بحكم الزينة الانسانيه

والمقتضيات والرغائب العصرية من التجارة الرابحة في العالم
وبين ظهر انينا ايضاً فلماذا اذن لا يشتغل بهذين الفنين عندنا
ان لهواً ولعبا وان جداً وكسباً خصوصاً فن التصوير ونحن قد
لا نعدم الاساتذة الماهرين من ابناء الغرب الذين برعوا فيه
واضحوا يعدون هذه الفنون من الضروريات بعد ان عدوها
مثلنا من الكماليات وزخارف الحياة الزائدة حتى صارت مثل
فرنسا التي نضرب الامثال بتقدمها ورقيها في الفنون والصنائع
تنادى بلسان احد نوابها في مقال له كتبه في شهر نوفمبر الماضي
في جريدة الجورنال الباريسية قائلا ما مؤداه « يلزم حكومتنا
ان تعضد الفنون الجميلة ولا تنكر اختصاصها بذلك لان هذه
الفنون ليست من البذخ والترف الزائد بل هي حيوية ضرورية
للانسان ولقد كان غمبتا انشأ لها في وزارته ادارة مخصوصة
فيجب على الحكومة ان تعير هذا الامر في مدارسها المخصوصة
جانب الاهتمام وتعتني خصوصاً بفن الرسم والتصوير والا
فنحن متأخرون في تلك الشؤون عن باقي الامم المتمدنة التي
سبقتنا بمراحل في هذا السبيل وقد عدلنا بعد عن اقامة المعارض
الفنية » وهكذا يتذمر القوم البالغون اوج العلى في الرقي فما

اسعد تلك الاحوال بالقياس على احوالنا نحن وعدم ادراكنا
حتى فوائد تلك الفنون فى الامم وتقدمها

١١

﴿ مكاننا من الرقي الحديث ﴾

بدء عهد الرقي الحديث فى مصر — ازدياد تلك الحركة فى عهد الخديوى الاسبق — العصر الحالى — مايجب أن تكون عليه فى ذلك الرقي — الخوف من الاندفاع فى تيارنا فهات الامور — مجمل مايخشى منه فى الامور الجوهرية

يبدأ تاريخ عصر الرقى أو الدخول فى التمدن الحديث
عندنا من عهد المغفور له محمد على باشا الكبير رأس العائلة الخديوية
الكريمة والجد الاكبر لسمو مولانا الخديوى الحالى حفظه الله
فانه رحمه الله تعالى رأى بثاقب فكره ضرورة ادخال الرقى
الادبى والمادى فى هذه الديار بحسب الاساليب الحديثة لشدة
احتياجها الى ذلك بعد كل ذلك الانحطاط الطويل الذى أوقعتها
فيه السلطات التى تقدمت حكمه وتركتها في حكم العدم. وبالرغم
عما أحاط بالمرحوم محمد على من المصاعب الجمه الجسيمة غرس
أول غرس فى هذا القطر على قاعدة التمدن الحديث بواسطة
جماعة من علماء أوروبا من الفرنساويين خصوصاً.

ولقد أثمر غرسه –كما يرى كل مطلع على تاريخ هذا الرجل
العظيم والمصلح الكبير – بقدر ما سمحت له الظروف به اذ
ذاك سواء في نظامات الحكومة وادارا تها وماليتها وترتيباتها
العسكرية أو في بث المعارف الحديثة ونشرها في انحاء القطر
بواسطة المدارس والمكاتب ثم انشاء الورش والفابريقات واحياء
الصناعة ثماراً يانعة كانت في جملتها كحجر الزاوية في ذلك البناء
من التمدن او الرقي الحديث في هذه الديار . فعصره عندنا يمكن
اعتباره بنوع ما كعصر «التجديد» عند الغربيين الذين يعتبرون
مبدأه لديهم يوم فتح الاتراك مدينة القسطنطينيه العظمى سنة
١٤٥٣ ونهضت افكار الاوربيين من وقتها طالبة الرقي متحرية
استفادة العلوم والمعارف وتغيير النظامات واحياء الصناعات

ومهما يكن من حداثة ذلك الغرس الذي بدأ به المرحوم
محمد علي باشا الكبير نور الله ضريحه لما رأى بنور بصيرته وبعد
نظره انه الانفع لخير هذه البلاد العريقة الحسب والنسب في
المدنية لانسانية وخير أهلها الذين أضناهم الظلم وأفسد حالهم
شدة الجور والعوامل التي تلت عصره الزاهر فكانت تارة
تعلو بذلك الغرس الكريم وتاره تخفض به فانه في جملته لما كان

لايخالف التقاليد التى عليها الامة ديناً وخلقاً بنوع ما فضلاعن
لزومه من وجوه كثيرة لما كانت فى الجملة مستعدة قابلة له على
التدريج وعلى ذلك تمت اصلاحات كثيرة وأعمال جليلة خصوصاً
بمدة حكم الحديو الاسبق المرحوم اسماعيل باشا سواء في الاعمال
والتنظيمات العمومية أوفي المارف ونظام التعليم أوفى الافكار
والآراء العمومية والعوائد والاخلاق بصرف النظر عما ضحي
فى سبيل ذلك وغيره من الاموال الطائلة والمظالم والمغارم
الكثيرة التي أثقلت كاهل الامة والبلاد بالديون وجملت أوائل
أيام المرحوم الخديوي السابق محمد توفيق باشا فيها مافيها من
الفتن والقلاقل التى انتهت بالاحتلال الانكليزى لهذه الديار

واذا كان احتكاك هذه البلاد بالغرب شديداً وارتباطها
به في ازدياد لاسيما منذ أن دخلت البلاد في دورها الجديد
وعصرها الحالى فمن ثم ازدادت تلك الحركة الارتقائية الحديثة
وضوحاً سواء في الاصلاحات العمومية التى تقوم بها هيئة
الحكومة الحاضرة أوفي المعاملات التجارية أوفى الخلطة العملية
والفكرية التى اقتضاها مركز البلاد بازاء الغرب تحت كنف
نظام حر عادل يقضي على هذه الامة ويحتم عليها المجاراة طلباً

للافضل فى الشؤون الحيوية وعواملها الرئيسة اللازمة بالنظر
الى مركزنا من الزحام على مورد الحياة المذب

غير انه وان تكن الامة المصرية قدخطت خطوة واسعة
فى هذا السبيل الحيوى لما يظهر من الفرق العظيم بين الحال
الحاضرة وحالتها مذ نيف وعشرين سنة مضت الا أن ذلك
الرقى كان أغلبه قاصراً على تلك الامور السطحية من المظاهر
الخارجية والعوائد والاخلاق التافهة مماوان كان أمره قديعد
طبيعى وضرورى فى أحوال الارتقاء ودواعيه الكثيرة الاانا
يجب علينا أن لانتطرف فيه تطرفاً ضاراً يئن منه عقلاء أهل
أوروبا أنفسهم وهى على ما نعلم من رسوخ القدم فى معرفة
أصول الحضارة ودواعى التمدن من العلوم والمعارف واستيفاء
التربية فكيف بحضاره عندناونحن على مانعهد من حداثة الغرس
وقلة الاختبار وتفاهة العلم وضعف المعرفة ؛ لاريب انه يكون
شراً علينا مما عليهم انلم نحترس لانفسناونأخذ له الاهبة بأتيان
الامور من أبوابها علما نافعاً وعملا معتدلا صحيحاً .

لا ريب أن مكانتنا من الرقي الحديث فى الحالة الراهنة
كماهو المشاهد تافه جداً وأكثره كماهو معلوم قاصرعلى قشور

التمدن ومظاهر الحضارة من التقليد فى الملبوس والمأكول والمشروب الى أشباه ذلك مما ضره أكبر من نفعه وأما تلك الامور التمدنية الجوهرية العظيمة النفع فانا لم نزل في بداية أمرها وعلى الدرج الاول من سلم الرقى فيها أليس هكذا حالنا فى العلوم والمعارف؟ أليس هكذا حالنا فى الصناعة والتجارة؟ أليس ينقص شأننا كثيراً في الآداب الاجتماعية والعائلية الى أشباه ذلك وان أتقنا لبس أجمل الملبوسات الافرنجية وأكلنا أوشربنا أحسن ماتبرزه الايدى الاوربيه؟

لماذا نندفع فى هذا السبيل الضار ونسبح في تلك البحار البعيدة الاغوار على غير هدى ولانور من العلم والاختبار وقلة الاموال؟ونحن نرى الغربيين بمجرد مامضى زمن الدراسة خرج الواحد منهم وكله نشاط للعمل الصحيح وكسب المال من وجوهه وحياضه المترعة معتمداً على نفسه متوكئاً على ماحصله من علم نافع وفن خاص غير مقصر فى طلب المزيد منه أوولوج باب آخر يتقنه بالاستناد على معارفه العمومية فيجمع الثروة بواسطة تلك الوسيلة من مهنته بالجد والاجتهاد ويحرص على درهمه حرصه على نفسه ان صرف فبالاعتدال وان تلهى فبالحالة

المتوسطة فتراه بعد حين وقد جمع له مالا بنسبة حاله يعدده ذخراً للايام وعدة للسنين وهو مع ذلك يستثمره في اى من الشؤون بعكس حالنا نحن من التبهظ والسرف وتبديد المال مكسوباً اوموروثاً بلا حساب ولاا كتراث كأننا ما حصلنا على مراكزنا العملية في هذه الدنيا الالهذه الغاية القبيحة والوصول الى تلك النهاية السيئة لالتكوين العائلات المتربية الطيبة وجمع رؤوس المال التى كما تكون عماد صاحبها وذويه تمد كذلك بنوع ما قوة للامة وحفظ كرامتها واعظم عضد مع العلم والمعرفة في سبيل رقيها

في كتاب كليلة ودمنة الذى نقرأه في مدارسنا هذه الحكمة البالغة قال :

«ان صاحب الدنيا يطلب ثلاثة أمور لايدركها الا بأربعة أشياء فأما المطلوبات الثلاثة فالسعة في المعاش والمنزلة في الدنيا والزاد في الآخرة . وأما أسبابها الاربعة فا كتساب المال من معروف وجوهه وحسن القيام عليه وعلى ما اكتسب منه والتمييز له وانفاقه فيما يرضى الاهل والاخوان وما يعود في الآخرة نفعه فمن أضاع شيئاً من هذه الخلال الاربع لم يدرك

ما أراد . فاذا لم يكتسب ولم يكن له مال لم يعش ولم يعش به
واذا كان ذا مال وذا اكتساب ولم يحسن القيام عليه أوشك
أن يفنى وان هو أنفقه ولم يثمره لم تمنعه قلة الانفاق من سرعة
النفاد كالكحل الذى لا يؤخذ منه الامثل الغبار ثم هو سريع
النفاد وان هو اكتسب وثمر وأصلح وأمسك عن الانفاق في
أبوابه ومواضعه الواجبة حقاً كان فقيراً كالذى لا مال له ثم
لا يمنع ذلك ماله أن يغادره ويذهب حتى لا يدرك منه شيئاً
كالحوض الذى لا يزال ينصب الماء فيه فاذا لم يكن له مغيض
ومخرج خرج من أماكن شتى فذهب ضياعاً»

ليس التمدن كل التمدن في تغيير العوائد الظاهرة والامور
السطحية والنزول الى ميدان الشهوات وملاذ الحياة التافهة
انما حقيقة التمدن وسبب كل نجاح في المضارعة والمصارعة
هو في ذلك النهج الحق من العلم والمعرفة والادب وحب الفضيلة
ومراعاة روح الشرائع واتقان الصناعة والتجارة وأنضاء عزيمة
العقول في تدبير المكاسب والمعايش وحسن الادارة في الشؤون
الاقتصادية والمالية وفاق مبادئها الصحيحة وأصولها العصرية
الرجيحة لبسنا ملابسنا الشرقية أم غيرناها أ كلنا بحسب

الاذواق الغربية أم بما يناسب أحوالنا المصرية .

لم كل هذا التورط الذي نراه كل يوم فى ازدياد بما يجاوز حد الطاق والقدرة اندفاعاً في غير المفيد الذي يضحك منا عليه الغربي الذي يعرف من أين تؤكل الكتف ولا نتقن نحن بأزاء ذلك من حاله غير الظهور بالمظاهر الكاذبة والتساقط على قبيح العوائد وفاسد الاخلاق الذميمة من غشيان الموبقات والمحرمات كشرب الخمر ولعب الميسر والتلطخ بالرذائل والشهوات وتبديد المال سفاهة واسرافا في أمثال هذه المخازي التى نظنها من التمدن وضروب الحضارة أو لذات الحياة الصحيحة مع انها ليست فى شيء من ذلك البتة والا لما انحى عليها العلم والادب العصرى فضلا عن الدين والفضيلة من قبل لاعتبارها من مساوىء الاجتماع البشرى وشرار الامور ومحدثاتها المعوقة للنفوس عن بلوغ السعادة بالمعنى الحقيقي فلذلك وجب القضاء عليها وتخفيف وطئها فى المجتمعات. على ان الغربيين قد لا يغشاها عندهم من يغشاها الا بقدر حاله وسعة ماله أما نحن فنتهافت عليها بغير حساب الفقير يريد أن يقتدى بالغنى والغنى لا يجرى فيها بالاعتدال مع أن حالنا من الفقر أو التوسط في الغنى معلوم

فيجب علينا أن نقتدى والحالة هذه بأهل ذينك الطبقتين هناك
خصوصاً عنـد الانكليز والالمان حيث همهما العمل والكدح
وتوفير الدرهم وان غشيت بعض حظوظ النفس ومشتهياتها
فبتقدير وحساب لذلك كانت الاموال لديهم كثيرة متوفرة فلا
صغير ولا كبير رجالا ونساء ثمّ الاوله ثروة خصوصية ومالا
احتياطيا مدخرا فى البـنوك أو فى صناديق التوفير يستثمره
وينتفع به بعكس حالتنا المعلومة من التورط والسرف والارتباك
ثم الاعسار الى غير ذلك من الامور الشائنة التي نجرها على
أنفسنا بأيدينا ناهيك ان قد جاءتنا النذر من قبل الرسميات
دالة على انا فى غرور وأن ازدياد الثروة العمومية الاهلية فى
القطر شبه الامر الوهمى فهى لذلك على خطر فلا يغر صاحب
الارض ارتفاع ثمن أرضه ولا الفلاح غلاء أسعار محاصيله
اذ هذا وذاك الى أشباهه انما هو في بعض حاله تلك نتيجة
« المضاربات » وان شئت فقل الاعيب أهل المهارة والشطارة
من الماليين والتجار بالاموال التى يجلبونها من الخارج خصوصاً
بالفوائد القليلة للكسب بها هنا بدل القرش قرشين وبدل الجنيه
ثلاثة فان صرنا «عقلاء» استفدنا وان بقينا في غرورنا وطيشنا

وسفاهاتنا النفسية خسرنا وذهبت أموالنا كسبا لاموالهم ويكون الذنب علينا لا عليهم هذا ما نخشاه وينذر به كبار المصلحين الآن بل هذا هو بالمعنى الخفي معنى مقدمة مذكرة جناب المستشار المالى التى مهد بها لميزانية الحكومة المصرية السنية لهذا العام .

نعم إن هناك في الرق مبداء عظيما يجب مراعاته للرواج العملي واتساع نطاق الصناعة والتجارة والحركة العمرانية وتقدمها على الدوام مما تضحى معه أشياء هذا العصر الكمالية مثلا حاجية ضرورية فى الذى يليه وهلم جراً وهو مبداء صحيح ولازم اقتصاديا وعمرانيا أعنى به تحرى الافضل فى كل شيء وأختيار الاجمل والاحسن من أمتعة الحياة الدنيا وزينتها وسهولة توصل النفوس اليها وهذا ما يكثر الحاجات وينتقل بالامم على الدوام من الحاجي الى الكمالى الا ان هذا كله ليس فى شيء مما تشتكي منه الامة الآن لانه شتان مابين الاندفاع في الفجور والميل الى السفاهات والاسراف فى كل شيء بلا روية ولا تبصر وبين تحرى الكمال فى العيش والترقى فى أسباب الحضارة ووسائط الراحة والهناء بالعقل والترتيب والتدبر المناسب للطاق والذوق السليم المؤسس على طبيعة الاحوال وسير الرقى فيها بالانتظام

فالذى نحن عليه الآن بهذا الصدد من الرق الحديث غير صواب ولا هو من قبيل اتيان البيوت من أبوابها وله رد فعل سىء المغبة نتائجه غير مجهولة وقد ظهرت مضاره بما لا يمكن نكره في كثير من أشخاصنا وأفرادنا فيجب علينا ان ننتبه لذلك جيداً ونحرص كثيراً على تسيير امورنا على مقتضى مبادئها الصحيحة ووفاق نظامها الحق ليس فى هذا فقط بل وفى كل الشؤون الاخرى الدنيوية حتى تكون راسخة القدم متينة الاحوال قائمة الدعائم عندنا كما هى عندهم في الغرب لاسيما في اشياء الحياة اذ الاندفاع فى باطل اللذات وفاسد المسرات مذهب للسعادة والهناء الحقيقين مضر بحال الانسان منغص عليه عيشه وأى عاقل يرضى بأن يكون هكذا مصير حاله فى هذا المجتمع الانسانى الذى مهما رقى ومهما سمت مدارك اهله وعواطفهم فانه غير راث لبلوى الساقط ولا مشفق على زلة من زلت به القدم من بنيه الا بمقدار ما يتساقط اليه من فضلاته وفتات عيشه

١٢

﴿ ما يجب رفضه فى الرق العصرى ﴾

ما كل ما يقال يؤخذ به — ما منى به الغرب من بعض الاراء والافكار الفاسدة — الاسلام كان له أيضاً مكرى صافيه — الفلسفة الصحيحة والفلسفة الالحادية — وجود الاله تعالى — الاشتراكية والدين رقول البرنس بزداوسكى فيها — شيوع هذه المذاهب وما تهدد به الامم — برقشة المذاهب الاشتراكية وزخارفها — ليست هي أمام المبادىء الاسلامية الا بضاعة مزجاة

من الناس من يعتقد في التمدن الاوربى الحديث السلامة من العيوب والكمال عن النقص كأنه خارج عن النظام الطبيعى والسنن الالهى للجمعيات البشرية التى لا يمكن ان ينال عمرانها الكمال المحض مهما بلغت به الحال من الارتقاء والتقدم فيأخذ الوهم منه والاعتقاد مأخذه فيقول ويتمسك بكل ما يأتى من هناك من الاراء والافكار الادبية خصوصاً ويعتمدها قضية مسلمة وحقيقة لا يختلف فيها اثنان حتى ولو كانت بديهية البطلان ظاهرة السفسطة والفساد شأنهم فى استحسان مظاهر هذا التمدن وقشوره السطحية التى سبق القول فى مساوئ ما تهافت عليه منها فى الفصل السابق وهم ان أعذروا في هذه لاخذ زخارفها وبهارجها بالنفوس لارتباطها بالامور القريبة ومظاهر الحياة

البشرية وحظوظها النفسانية فلاعذر لهم فى تلك وقبولها قضية
مسلمة مع انها قد يكون منها ما هو شر على بنى آدم مفسد
للحق من وجدانه والطيب من شعوره

ان الغرب وان كان قد ملك قياد العلوم واقتاد المعارف
بزمام فسخر القوى الطبيعية وحل العناصر المادية وزلل بواسطة
هذا وذاك من مخترعاته ومبدعاته التي تدهش العقول وتحير
الالباب صعاب الحياة واسس اخيراً نظام اجتماعاته واصول
عمرانه على مبادئ ونواميس تكاد لجودتها ومتانتها تعد فى
مصاف الاصول الطبيعية او هى هى مكيفة بما يناسب الاحوال
ومقتضيات الزمان الا انه قد منى بازاء ذلك ايضاً بشطر عظيم
من الاراء والافكار التى اتعبته كثيراً وشوشت عليه الامور
طويلا وكان ولم يزل من نتائجها اضطراب احواله من حين الى
حين بحسب ما يبدو منها تلقاء الاصول المتبعة والنواميس
الجارية من القوة او الضعف بغلبة الحق تارة والباطل طوراً

وشأن الغرب فى ذلك الآن شأن الاسلام حين طلبت
عقول اهله العظيم من الافكار فكان ثم فرقة على الحق تتبع
الشرع وتمسك بالاصول الصحيحة والنصوص الصريحة وفرق

اخرى كثيرة تضرب فى بيداء الاوهام والاغاليط من حولها
تعكر صفائها وتشوش عليها سير الامور بحسب نظامها وحقها
فكأن الزمان أو التاريخ يرينا الآن فى قيام مثل الاشتراكية
والكومونيه والنهلستية واضرابها ما كان عليه اهل الاسلام في
عصورهم الاولى من فرق أهل السنة والقدرية والمعتزله والجبرية
والخوارج والامامية والدهرية والفلاسفة الخ الخ

فهؤلاء الذين ابتليت بهم المدينة الغربية من الاشتراكين
والالحاديين واضرابهم هم مثل اولئك الذين منيت بهم المدنية
الاسلامية من قبل من الخوارج والقدرية والدهرية الخ . وهؤلاء
وهؤلاء قد تطرفوا فيما هم بصدده من المقالات والمذاهب وتغالوا
فيها عما حلقوا به الى ما فوق الحق والخيال الجيد والوجد ان
الصحيح فشطوا بذلك وضلوا عن نهج الحق فاحدثوا وولدوا
خصوصا جماعة اهل الغرب الآن لسعة صدر النظام والحرية
العظيمة كثيراً من الاراء والتعاليم والمذاهب السيئة بالمرة والتى
اضحى يجاهدها كبار العلماء وفحول اهل السياسة هنالك جهاداً
كبيرا كما كان يصنع علماؤنا قديما .

اذا جرد الانسان نفسه من الهوى حكم ولا ريب بان

الحق فى نفسه واحد لا يمكن ان يفترق وان كانت الطرق اليه شتى بعضها أقرب اليه من بعض وبعضها خارج عنه بالمرة لا يحكم بها عقل رجيح ولا شرع صحيح . وان ما لا سبيل الى قبوله بالمرة منها هو تلك المذاهب الفلسفية الالحاديه التى تنكر الخالق تعالى والرسل الكرام عليهم السلام . وهذه الفلسفة ليست بالجديدة فى هذا العالم وان تغيرت صور اوحجج وصيغ القائمين بها بحسب العصور والمكتشفات ولاهي بالتى استأثر بها الغرب فى هذه العصور وسواء كانت ابنة الشرق أو ابنة الامة اليونانية القديمة أو ابنة الغرب الحديث فهى مما لا يمكن ولا يصح التسليم به أو قبوله لان ما تحاجج به أهل الاديان السماوية مهما ألبسته أثواب الدقة وقوة الاحاطة والحجة فكثيرا ما نراه مع الزمان قد ينكص على عقبيه امام الحقائق الدينية الراهنة تبعاً لما يظهر ويبدو من المكتشفات المؤيدة لهذه الحقائق الدينية المبطلة لتلك الاراء الالحادية بعد ان كانت آخذة بالالباب وتكاد تذهب بالعقول .

فحال لاراء الفلسفية الالحادية هو غير حال المبادي الفلسفية الاخرى التى تؤسس على الحق والعقل الصحيح غير نا ترة الذات

العلية الصمدية ولا النبوات بخلاف الفلسفة الالحادية التى قد
ترى من شأنها مع الحقائق الكونية الالهية كحال تلك الامواج
البحرية التى تحدثها الانواء العظيمة احيانا في البحار ثم لم يلبث
البحر بعدها الا ان يهدأ ويعود اليه صفائه ويرجع اليه رهوه
كذلك أشياء او شبهات هذه الفلسفة الالحادية يبقى ماكان منها
مؤيدا للحق غير مخالف للصواب ويذهب زبدها جفاء امام
الحق من الاديان ومبادئ الفلسفة الروحية الصحيحة وما اعني
بها هنا الا تلك المذاهب الفلسفية التى لا تنكر الخالق تعالى
مهما اختلفت مباديها وتشعبت فروعها بخلاف تلك وان تغيرت
اسمائها وتعددت مسمياتها بين دهرية ووضعية ومادية الى اشياه
ذلك قال الشاعر الشهير لامرتين « الالحاد ليس هو الا ذلك
الكمه الادبي العظيم اللاحق ببعض الناس المجردين من أول
شعور للانسانيـة الشعور بوجود الله تعـالى » وقال بوسيه
«الالحاد يفقر الانسانية ويسلبها اعز مالها الاعتقاد بالله والنفس
والخلود» وقال شاعرنا العربي :

فيا عجبا كيف يعصى الاله   أم كيف يجحده الجاحد
وفى كل شيء له آية   تدل على انه واحـد

ومما ينتاب الغرب الآن ويرزح تحت حمله ويجب رفضه
بل هو مما لا سبيل الى القول به عندنا تلك المذاهب الاشتراكية
لان ادياننا القويم مباديه الساميه وهي كافية اذا جرينا عليها بالحق
لان تجعل مجتمعنا سعيدا مضبوطا خاليا مما يشين ويئن الغرب
منه فلا موجب اذاً للاشتراكيه عندنا ولا داعى لها حتى تلج
الى ديارنا وتسرق نفوسنا كما سرقت النفوس ثم برقشتها . على
انه ما اوجدها واحدثها فى العالم فى الجملة سوى الاثرة المتناهية
المخالفة للمبادي الحقة وحب الذات عند الطبقات العالية قال
البرنس بوذداوسكى الوزير الالمانى مؤخرا هذه الكلمات الكاشفة
للحال هناك «ان اثرة طبقة ذوى اليسار والرخاء يظهر لى انها
مما يؤيد مدعى الاشتراكيه من ان طوائف العمال لا يمكن
ان تنال الخير من الهيئة الاجتماعيه الحاضرة فان طبقاتنا الغنية
المالكة قد اعمتها الماديات والاستغراق فى الشراهات وحظوظ
النفس فهى فى حاجة الى نظام أدبى شبيه بالذى كان منه في
القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر فهذا وحده كاف لان
تقاوم به الاشتراكية التى هي الاخرى اقل تعلقاً بالخيال (يشير
الى ما تطنطن به من المبادى) من تلك الطبقات العالية وبذلك

تأخذ هذه الطبقات مالها من حق النفوذ فى البلاد » على انى أقول ان الاشتراكية الصحيحة والديمقراطية المنيفة المعتدلة هى من مبادى الدين الاسلامى — وقد جاهر بذلك الان جماعة من أهل البحث فى الغرب — الذي يقرر المساواة بين المؤمنين ويحى على الاثرة ويقرر مثل الزكاة والصدقه وحسن المعاملة ويحث على العمل ويأمر بالصبر والرضي بما قسم للانسان من الارزاق والاعمال ويجعل المؤمنين أخوة ولكنه يحارب الاشتراكية الاخرى المتطرفة التي تقرب من « الفوضوية » بارادة قلب النظام في الهيئات الاجتماعية الحالية بقوله تعالى « اطيعوا الله واطيعوا الرسول وأولى الامر منكم » وقوله تعالى في تفاضل الطبقات في الهيئة « والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق » فباطلا بعد هذا التصريح السماوى ان يتم ما يريد الاشتراكيون من التساوى فيها وعليه فيكون هذا الذي تطلبه الاشتراكية من تنظيم الهيئة الاجتماعية وتوزيع الارزاق بواسطتها بالتساوى على ما قرروه في مقالاتهم مما لو جرى عليه البشر لفسدت الحال وبطلت كل المساعي مما يجب رفضه بتاتا عندنا لانه غير حق ولا صواب ولن يتم امره

وانى لا اريد ان ابين هنا كيف تولدت هذه المذاهب والاراء الاشتراكية وتدرجب وتشعبت في امم الغرب الى ان وصلت الى حالتها الراهنة من كثرة الاحزاب والشيع حتى في ذات المجالس النيابية وبين رجال الحكومات لخروجه عما انا بصدده وانما اقول ان كثيراً منها كما سيأتى قريباً مزيد بيانه مبني كمبادى الفلسفة الالحادية على السفسطة والمغالطات مما ظاهره أنيق وباطنه يخالف الشرائع والعرف الاجتماعى القديم منه والحديث في كثير مما لا يسعد الاجتماع البشرى الا به ولا ينال التقدم بل والرخاء والسعادة الا على يديه بالرغم عن طنطنة تعاليمها وبرقشة مباديها بادعاء إصلاح الهيئات الاجتماعية وترتيب احوالها بحساب موزون وعمل منتظم وما هو فى الحقيقة ونفس الامر الا اوهام فى اوهام ممن يخلون من المسؤوليات وقد انحى عليها العلم الصحيح وقضت عليها العقول الراجحة في الغرب نفسه مجمع الاضداد وملتقى ابحر الافكار العظيمة

ومهما يكن من الاسباب والمدعيات فانه من الغريب ان هذه الافكار الاشتراكية على تفاهة اكثرها قد شاعت شيوعاً هائلا حتى بين الكبار والعظام هناك كما تقدم مما يخاف له قادة

الامم وساستها في الغرب اثما خوف قال الوزير هانوتو في فصل نشره في جريدة الجورنال في شهر نوفمبر الماضي تحت عنوان «الازمة» في معرض الكلام على الازمة الاجتماعية الاشتراكية ما نصه «ان هاته الازمة الاشتراكية هي في كل ناحية الآن فهي على ابوابنا نحن وهي في المانيا بل ها هي في جميع الممالك وعند كل دول القارة وكل من تظهر منهن بمظهر الفخر والاعجاب من السلامة من ادرانها نراها ليست بالاقل من غيرها فيما يهددها من ذلك»

واذا أراد القارىء بعد ان عرف أسباب الاشتراكية وأزمتها الاتية خصوصاً من قبل الاثرة والتناهي في حب الذات في الطباقات العالية وتطلع نفوس الطباقات العاملة الفقيرة اليها كما قاله البرنس بوزداوسكي وأتيت عليه انفاً ما هو أو ما هي المذهب أو المطالب الاشتراكية — ما عدا الفوضوية وأختها النهلستية فانهما ليستا غير جريمتين على الانسانيه — قلت انهم يبنون هذا المذهب على ان أصل شقاء الهيئة الاجتماعية وسبب بلاء بني آدم المتمدنين ومثير احقادهم واضغانهم ومنازعاتهم بل وجناياتهم انما هو «الملكية» فلو أبطلت هذه الملكية الملعونة

وكل حقوقها لحلت السعادة على الارض والهناء وبطل كل شقاق وجفاء بين عموم بنى الهيئة. ودواء الهيئة من داء الملكية عندهم وجميع جرائرها هوفى الغاء جميع حقوقهاوجعل كل أشياء المجتمع وأمواله على «الشيوع» والاشتراك بين عموم أبناء الهيئة تدير دولاب أعماله وتمسك بزمام دفته يد الهيئة الحاكمة على نظام طويل عريض فصلوه وشرحوه ضاربين بمبدإ الحرية الشخصية التى عليها عمار هذا العمار عرض الحائط .

ولقد لطف المتأخرون من الاشتراكيين وهذبوا كثيراً من أقوالهم القديمة وهم لكي يحسنوا آرائهم ويزخرفوا مقالاتهم ومذاهبهم لا يتكلمون الا بالعلوم والمعارف والسلام العام والراحة والهناء والسعادة للهيئة وكل افرادها وتنظيم العمل والملكية والحكومة وتوزيع رؤس المال والثروة توزيعاً عادلا واصلاح حال العمال والفقراء والعائلات وابطال المنافسات والمنازعات الضارة وتقرير مبدإ المساواة بحسب النسب التامة بالاشتراك في كل الحقوق والحظوظ الى غير ذلك مما يطنطن ويتشدق به أنصار الاشتراكية ولكنه عند التأمل والتدقيق بالنسبة للسير الطبيعى للامور العمرانية قد يرى أكثره فى الحقيقة من قبيل

الحق دسوا فيه زخرفاً من الباطل فصار مزيجاً قد تشتهيه
النفوس غير المتوفر فيها كل شروط النجاح أو ذات الخيال
الكبير مع ان سمه فى دسمه بالنظر الى المبادىء العمرانية الحقة
أو على الاقل التى لاينجح شأن الاجتماع بدونها ناهيك أن
الارض ليست بدار تساوى فيما يتطالبونه بل هى دار عمل وكدح
وهـذا العمل وان كان مطلوباً من الجميع على السواء غير ان
الماجريات قد دلت على ضرورة وجود فاضل ومفضول او
رئيس ومرؤوس وبعبارة اخرى منعم فى العيش ومقتر عليه فى
الرزق بصرف النظر عن النظام العمومى الحر والشرع العادل
الذى تتساوي أمامه الحقوق وتتبارى تحت رعايته الهمم واذا
كانت الطبقات العالية أو الغنية او «المفضلة» كما يسميها الوزير
هانوتو في فصل اخر له نشره فى جريدة الجورنال فى دسمبر
الماضي قد نالت حظ السيادة والسعادة سواء بكدها أو بكد
الآباء والجدود فهي ان توانت في مقامها أو تراخت في شأنها
قام ولا ريب غيرها مقامها بطبيعة الحال بالكد والاجتهاد ايضاً
بدون مقتضي الى قلب النظام او تغيير الاحوال.

وهذه الطبقات العالية وان سلكت بمايوجب عليها اللوم

أو انتقاص القدر او تغير أحوالها فهذا لا يقتضي ان الطبقات
الاخرى العاملة الديمقراطية تحتج بذلك لتترك شأنها وتمسك
بالامانى والاحلام لدرجة انها تعارض أخيراً فى مبدإ التجنيد
مثلا لحماية الاوطان بدعوى ظاهرها حب السلام العام وباطنها
التشفى والانتقام على زعم أن التجنيد ليس هو الا للذب عن
مصالح ذوي الأثرة وأرباب الغنى وهذا لعمرى هو منتهى
الخرق والحمق المناقض لحفظ كيان الجمعيات البشرية وليس هو
فى شيء مما يتطلبه بالعقل أولئك الفلاسفة ومحبو السلام العام
وجملة القول أن الآراء الاشتراكية التى طفح الكاس بها
الآن في الغرب وبرقشها ذووها برقشة تأخذ بالابصار وتجذب
اليها النفوس وتخلب العقول بادىء بدء هى فى كثير من مقالاتها
كما رأيت من سقط المتاع ولا سبيل الى قبولها عندنا ناهيك
ان فى مبادئنا الاسلامية من الديمقراطية الحقة والاشتراكية
الصحيحة ماهو أفضل منها من كل الجوانب فلهذا نحن نرى
الاشتراكية ونعتبرها بضاعة مزجاة وقول هراء ان وجد له
اسباب جمة هناك فليس له على مبادئنا الصحيحة حجة واحدة
ولعل القوم يعترفون لنا بهذا الفضل على طول المدى كما تدل

عليه بوادر بعض الاقوال والمباحث العصرية .

١٣

﴿ أيمكن ان نجاري الغرب ﴾

الانسانية والرقى — التمدن الحالى واستفادة الامم منه — التقليد فى الناقع من خير ما يرقى الامم والافراد — طريق المجاراة — الخوف على الضعيف بالنظر الى النظام الحر — كلكم راع .

قال بسكال الفيلسوف الفرنسي الشهير « يمكن تشبيه الانسانية برجل لا يهرم أبداً ولا يموت قط ولا ينسى مطلقاً ولكنه يتقدم دائماً ويرتقى فى معارج الرقى العلمى والعقلى ». وهذا التشبيه الجميل والقول الجليل قد نرى حقيقته بالمطابقة عند متابعة حوادث التاريخ البشرى وتدرج الامم فى معارج التمدن من البسائط الى ما هو فوقها من المركبات والدقائق العلمية والعملية فلا تمدن مضى الا والذى خلفه كان أفضل منه وأرقى وان اختلفت الامم وتغيرت الشعوب مع ذلك فالانسانية هي ذلك الرجل الذي قال عنه بسكال قوله السابق .

ومهما يكن من حال التمدن الحالى فانه فى الجملة مؤسس على دعائم النظام الجيد والعلم العالى الكعب وانطلاق حرية العقل

والفكر من قيودهما فهو بهذا الاعتبار بالغ حد العظم من الارتقاء والتناسب بما ليس وراءه مطمع ولا متسع ولو على الاقل بمقدار ما تسعه عقولنا وأفكارنا الحالية .

وهذا التمدن العصرى بحسب أحواله المكشوفة للخلق كلهم ومبادئه غير الممنوعة عن أحد ضمن دائرة النظام والشرع صار كالمتاع المشترك المنفعة والشيء الموضوع على الشيوع بين عموم العالم الانسانى فهو بهذا الاعتبار اذا استمدت منه الامم المسيحية استفادت منه كذلك الشعوب الاسلامية كما قد تكتسب منه تلك الاقوام البوزية لا سيما وان المتأخر من الامم الطالبة الرقى الناهضة الى العلا المتشبثه بالحضارة ولو من جديد قد تكون بازائه كالمتجاوزة لكل الادوار الصعبة والعقبات الكؤود التى مرت عليها الامم المتقدمة السابقة لها في التمدن فتأخذ بالصفوة من الاساليب والخلاصة الاخيرة من الوسائل غير مبتدئة الا من حيث قد انتهت اليه مجهودات الامم المتقدمة عفواً بلا كبير عناء أو عظيم تعب اذا كانت ممن يقدر أن يستفيد ويبنى على ما استوعب بالتجديد بحسب ما يناسبه

وليس غرضي من هذا ان الطفرة جائزة أو أن القابلية

التدريجية غير واجبة وإلا اختل التوازن وعدمت الفائدة فى التغيير فى الأمم الجديدة أو ذات التقاليد الراسخة المباينة بنوع ما لكثير من أشياء التمدن الحديث بل الذى أريد هو أن الشعوب القابلة لذلك التمدن المستعدة له خلقا وخلقاً قد يمكنها أن تستمد منه كل حاجاتها الارتقائية تدريجاً بحسب ما تسمح لها به أحوالها التقليدية وقابلياتها سواء في العلوم والمعارف النافعة أو في الصنائع والفنون العظيمة أو فى النظام والترتيب بالتقليد والاقتداء التدريجي فيما هو معدود من النفع الخالص واطراح ما يرى أو يعلم فيه عكس هذا الحال مما يخالف كلية تقاليدها الصحيحة ومصالحها الحقيقيه أو لا نفع ولا فائدة فيه البتة الى غير ذلك والتقليد فى النافع كما يقول فلاسفه الاخلاق وعلماء الاقتصاد من خير ما رقي الأمم ويحسن حال الافراد وهو من طبيعة النفوس البشرية بنوع ما في رقيها وصلاح حالها وإلا لما تقدمت أمة أو صلح حال انسان قال بعض علماء الغرب ما محصله « لقد كان التقليد أول منهض لجميع الفنون ولولا أن العقل الاختراعي والفكر الاستنباطي مع كراهته لهذه الخلة من التقليد مر عليها فى مسيره الى ما يحلق فى جوه من الخيال الغني لوقف ضعف

الطبيعة البشرية عند حد الحقائق المادية غير مسموح له بالتخطى
الى ما ورائها »

ان الامم البالغة ذروة الحضارة الآن وتملك قياد التمدن
الحديث لتجرى هي الاخرى أيضاً في شؤونها على هذا المبدأ
مبدأ التقليد والاستفادة من الغير الدال على الحياة وقوة الشعور
وبالتالى على صحة القابلية للتمدن والاستنباط بالبناء والتجديد
على ذلك لهذا نرى المنافسة والمزاحمة بين أمم الغرب قائمة الآن
على قدم وساق بالغة أشدها فترى هذا الاختراع أو ذلك
الاكتشاف قد تدعيه البلدان الكثيرة منها واذا شرفت به أمة
لم تقعدهمة الاخرى عن الاستفادة منه أو تحسينه واتقانه بالبناء
عليه وتراهم في العقليات والادبيات كذلك وكم من كتب ألفت
في فرنسا أو ايطاليا استفاد منها الانكليز والامريكان اكثر
مما استفاد منها أهلها أنفسهم وكم من مؤلفات ألمانية وانكليزية
راجت بضاعتها عند الفرنسويين والايطاليين أي رواج بل كم
من عوائد وازياء ظهرت في باريس مثلا فكانت بعد بضعة
أيام يتخلق بها ويتزيا بمثلها في لوندن وبرلين وشيكاغو تلك سنة
الله في خلقه في التقليد والاقتباس بعضهم من بعض مع الاختلاف

فى قوة أو جودة الاختيار الدال على الرقي وسلامة الاذواق .
وهذا فى الغالب يتبع قوة التربية أو قلة البضاعة منها وما هي
فى الحقيقة إلا تقوية أو اعانة العقل البشري على ما وهب من
قوة التمييز والحكم العقلي الحاكم على الامور ماديّاتها وأدبياتها
تبعاً للظروف المحدقة فان كان مبناه على الجهل وعدم التربية أى
الخطأ كله أخذ بالقشور القريبة ومال الى اقتباس التافهات
الظاهرة دون سواها لاعتياده الخطأ في المبادئ ونقصها عن
الكمال والعكس بالعكس

فمجاراة الأمم المتمدنة أفراداً وجماعات بعضهم لبعض
بالتقليد في الشؤون الارتقائية من العلم والمعرفة والعمل
والاصطلاح من أفيد ما تميل اليه النفوس الراقية المميزة وأحسن
ما تسمى فيه الهمم العالية لتزداد قوة على قوة فى العمل الخصوصي
والشأن العمومى لا سيما اذا كان سبيل ذلك مفتوحاً وأمره
ميسراً بسهولة المواصلات العصرية والخلطة الزمانية ونحن نرى
ان المصرى وبعبارة الشرقي بحمد الله لا يقل كفاءة عن الغربى
كما يشهد بذلك الاوربيون أنفسهم ممن لم يخامر قلوبهم التعصب
الجنسي ولا نفوسهم حب الاجحاف والاتصاف بعدم الانصاف

وانما الذي يغشاه ويقصر من همته هو شيء من ذلك الفتور الطارئ على النفوس من آماد مضت للاسباب التي سبق شرحها من سوء النظام وتخييم الجهل عدة قرون الى اشباه ذلك مما هو كاف لان ينتج نتائجه المعلومة التي تئن لها النفوس الحساسة وقد كثرت عندنا بحمد الله تعالى الآن وما هي إلا بشائر الخير وباكورة العمل الصالح لما فيه الالتفات الى المصالح

ثم هذا الفتور في الهمم والتثاقل في أشياء الحياة في جملته الباقية قد يعد بالنسبة للحالة الراهنة خصوصاً من حيث تشعب الجنسيات التي تجمعها البلاد المصرية وفيها القوي والاقوى والضعيف والمتوسط مما يبقى معه القوى أبداً قوياً والضعيف على حاله بل ربما اكتفى لضعفه ونقصه الادبي بالسفاسف والسطحيات وترك لمناظره تحري جواهر الامور وجلائل الاشياء فازداد بها قوة في ميدان تنازع البقاء وراح ذلك الضعيف ضحية فتوره وتثاقله مجهزاً على نفسه مادياً وأدبياً بما حصل من القشور وحظ النفس من بهارج وزخارف لا تغني في الحياة فتيلا

هذا كله بنوع ما صحيح في جملته كما في تفصيل أشيائه ولكن أليس في العبر الكثيرة والنتائج السيئة اللاحقة مزدجر

وأي مزدجر قد يكون من وراء تجاربه العديدة أعظم موقظ للنفوس ومنبه للهمم على توالى الايام طال مداها أو قصر أجلها تبعاً للظروف القاضية بالارتقاء خصوصاً من حيث استجادة التربية والتعليم العصرى ما دامت الامور العمومية مكفولة بجودة النظام وحسن الرعاية من جانب الحكومة السنية الساهرة على مصالح البلاد والعباد؟

فأس الارتقاء وسبيل المجاراة والمباراة والاستفادة خصوصاً من أشياء التمدن العصرى على أفضلها لاتكون الا من أختيار أحسن أنواع التربيــة العصرية الضرورية العقلية والبدنية مع الاستظلال بظل أجود النظامات السياسية والادارية والقضائية بحسب ما يناسب الاحوال وتقضى به روح التقاليد الحسنة والعوائد والاخلاق الجيدة للضمان بذلك تحيا الهمم وتشحذ الاذهان وتسمو المدارك وتنقشع سحابات الفتور والجهالات المخيمة على العقول وتمحى شيئاً فشيئاً ما أشربته النفوس من التعلق بالسفاسف والتخلق بالنقائص فيحصل الارتقاء التدريجي والمجاراة فى النافع والمنافسة بالحق فى أشياء الحياة العصرية الصحيحة بين الامم والطبقات وبعضها فيها فاصلاح البــلاد

وبعبارة انتظام أحوال الشعوب كما يقتضي يقظة حكومتها وسهرها
على إقامة العدل وتنظيم الاعمال العمومية وترتيب المنافع الوطنية
يحتاج أيضاً الى أن الامة تنتهز فرص ذلك فتقوم بالاصلاح
الذاتى لان للنظام الحر فائدته من ترقية شأن العامل النشيط
وشبه الاجحاف بحق الخامل مهما تداخلت الحكومة وبسطت
من يدها ومساعدتها فى كل الشؤون حتى لدرجة مايتطلبه
الاشتراكيون انفسهم

وليس المراد بالمجاراة والمباراة عندنا فى الشؤون الارتقائية
العصرية أن نجتهد ونسعى ونتافس في العلم والادب والتجارة
والصناعة والاعمال العظيمة الى غير ذلك مثل تلك الشعوب
الراقية جداً كالانكليز والامريكان والفرنساويين والالمان الخ
البالغين الذروة العظمى من التمدن والحضارة والاختراع
والاكتشاف الى غير ذلك من أحوالهم العظيمة بل حتى نصير
كأمة حيه شاعرة بحاجاتها عاملا كل فرد من أفرادها لما
تقتضيه مصلحته الحقيقية داخل دائرة بلادنا وملحقاتنا ذات
المستقبل الزاهر على الوجه النافع والعمل الصواب وفاق نواميس
الرقى الصحيحة لكي يأمن كل منا جانب تلك المسؤولية الملقاة

على عاتقه فى هذا العالم سواء عن نفسه أو عن ولده وأهله او عن قومه ووطنه التى عناها ولاريب رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله « كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته »

١٤

﴿ الاسلام والرقى ﴾

مزاعم اعداء لاسلام ايضا — شيء من المبادى الاسلامية — جملة ما احدثه الاسلام من الرقى — الرقى الدينى والشرعي — الرقى العقلى — الادبيات الاسلامية العربية — الصنائع العملية — عذر والزام حجة

زعم جماعة من الباحثين الغربيين أن الدين الاسلامى لا يرقى بأهله ولا ينهض بمعتنقيه الى أوج التمدن والحضارة وحجتهم فى ذلك إما محض تعصب لانفسهم وإما الاستناد على الاستقراء الناقص والنظر السطحي فى الامور المشاهدة والرسوم التى الصقت بهذا الدين الحنيف والتفت حول أصوله فاخفتها عن النظار حتى الكثير من أهله أنفسهم فحجبت نوره الساطع وضيائه اللامع مما كان في جملته وتبعاً للظروف موجباً للخلط والتشويش والارتباك في أشياء الحياة وإن شئت فقل سبباً في الرجوع الى الوراء الامر الذى جعل لهذا القدح سبباً ولذلك

الطمن سبيلا يختلف فيه الباحثون باختلاف أحوال الامم الاسلامية بحسب البقاع والاحوال الاخرى المحدقة بها

لقد جاء الاسلام بالصريح آمراً بالعلم ناشراً لواء حرية الفكر والعقل لأهله بمعنى أن للمسلم النظر والتأمل فى عظيم خلق الله وبديع نظام الكائنات وجلائل النعم والمصنوعات وعجيب الآيات فى الارض والسموات . وهو كما حث على ذلك مما ينبغى أن يكون أساس التربية العلمية عندالمسلمين وعمادرقيهم العقلى أمرهم كذلك أمراً عظيما بالتمسك بالفضائل ونبذ الرذائل تزكية للنفوس وتطهيراً للاعراق كما أمرهم بالسعى والعمل وأعطاهم فى النظام الحكومي والشرعي أعظم المبادى في العدل والمساواة والديمقراطية الصحيحة المبنية على أجمل أساس وأحسن الوجوه وبذلك صارت الحقوق والواجبات محفوظة والمؤمنون مع ذلك أخوة لافضل بينهم الا بالتقوى بصرف النظر عن فارق التفاضل في المقامات والارزاق الى غير ذلك من الشؤون الدنيوية واذا ضممنا الى هذا من مزيته تلك المزية الاخرى في التوحيد الخالص والايمان بالرسل كلهم ثم فوائد الاحكام التعبدية والتعاملية كان الاسلام في إعتبار أهله أرقى دين أو نظام فى العالم يجب

أن تنشده الانسانية بأكملها

ولست هنا فى مقام تعداد المآثر وتبيان المفاخر مما عبرته
فى العمل ولا بصدد رد حجج الخصوم بالحجج البينات حتى
أشرح من ذلك وأفصل مما قام به كثير من العلماء خير قيام حتى
في الغرب نفسه مجمع الاضداد وملتقى ابحر الافكار العظيمة وانما
أنا في مقام التذكير الاجمالى لأهل ديننا القويم لما انتابهم
وانعكست فيه أحوالهم وما يقتضيه حال رقيهم العصري خصوصاً
بسرد بعض الشيء مما كان عليه حال التمدن الاسلامى ونهضته
العظيمة بالعقول أيام ازدهاء دوله الكبرى للدلالة أو الزام الحجة
على ان الانحطاط لا سبب للدين فيه وان كان فذلك لأنا نحن
معاشر المسلمين الذين جنينا على نفوسنا ان اضطراراً أو اختياراً
بتأخرنا وتركنا شيئاً فشيئاً للجوهر وتمسكنا بالاعراض فصرنا
بذلك في واد والعلوم والمعارف الحقيقية فى واد بعد أن كانت
رياض نفوسنا ومرتع عقولنا ومستمد أفكارنا والحجة البالغة
والسيف القاطع لتأييد ديننا ومعتقدنا معاشر أهل السنة والجماعة

الاسلام باصوله العامة موجب للرقى في كل زمان ومكان
فصوت القرآن وحكمة الدين العالية ونوره الساطع هو ذلك

الامر السماوى العظيم الذى غير جيل العرب دفعة واحدة وسلخهم من جاهليتهم الاولى وتقاليدهم التالدة وجعلهم من من الاتحاد فى الوجهة والفكر والمبدإ وطلب الحكمة ثم سرعة الانتشار فى الارض بهذا المقدار العجيب فى مدة لا تجاوز نصف القرن من السنين.

والاسلام هو الذى بعد التمهيد ودور الفتوح جعل أهله التماساً للعلم وتوسيعاً للمدارك فرقاً وشيعاً كانت منها بالطبع فرقة على الحق المبين وفرقاً أخرى كثيرة الى جانبها لها آراء ومبادئ تقول بها وتحاجج وتذود عنها بطرق منطقية وأساليب كلامية وأصول حكمية فلسفية دفاعاً عما كانت ترمى اليه مذاهبها وتأويلاتها لاى القرآن مستمد الجميع وواسطة عقد هدى الكل فى الالهيات وأصول الاعتقادات وفهم أسرار الكائنات وينبوع الشرائع المدنية والسياسية والقصاصية لاهل الاسلام كافة ومن ثم كان هناك أهل السنة ثم القدرية أو المعتزلة والجبرية والخوارج والامامية والمرجئة والفلاسفة الى آخر ما كان هناك من الفرق والشيع وأصحاب المقالات ثم وطوائف الصوفية أرباب الرياضات النفسية مما يدل فى جملته على مقدار ما كانت

عليه الحركة الفكرية التى أحدثها الدين الاسلامى فى العالم وكان
منه ذلك الرقي العقلي الباهر الذى لعب بالرغم عن العوامل
والحوادث الاجتماعية العصرية التى لحقت به فى العصور التالية
دوراً مهما فى تشخيص رواية التاريخ البشري على مرسح هذا
الوجود الدنيوي في القرون الوسطى والذي انتقل دوره فيه
فى القرون المتأخرة الى العالم الغربى حتى ليمكن أن يقال ما أشبه
الليلة بالبارحة وحتى ليعترف الغربيون أنفسهم الآن بأن العرب
هم أول من علم العالم كيف تتفق حرية الفكر مع استقامة الدين
كما يقول العالم جوستاف لوبون في كتابه فى التمدن الاسلامى.

واذا انتقلنا من أهل الاصول الى أصحاب الفروع أرباب
الفقه الباحث في الاحكام الشرعية العملية المستنبطة من الادلة
التفصيلية المستمد من سائر العلوم الشرعية والعربية نرَ صحيفة
أخرى ومنظراً جميلا ثان لما أحدثه الدين الاسلامى من الرقى
في العقول والتأثير الجيد في العوائد والتهذيب للاخلاق بواسطة
الامور التعبدية والفروع التعاملية والسنن الجميلة ورواية
الاحاديث والشمائل الشريفة والتفاسير القرآنية الى أشباه ذلك
مما ينتظم فى سلك هذا العقد النضيد بل البحر الاسلامي الواسع

وقد برّز فيه الجماعات الكثيرة من فحول الائمة والعلماء الاعلام كالامام ابى حنيفه والامام مالك والامام الشافعى والامام ابن حنبل وغيرهم كثيرون في الفقه وكالبخاري ومسلم والترمذى وابى داود والنسائى وغيرهم في الحديث وكابن عباس والطبرى والزمخشرى والرازى والبيضاوي والامام الراغب وغيرهم فى التفسير وكامام الحرمين والغزالى والقرافي والدبوسي وخلافهم فى أصول الفقه . وكالقشيرى والغزالى ومحيي الدين بن العربى والسهروردي وابى الحسن الشاذلى وعبد القادر الجيلى وابن عطاء الله السكندرى وغيرهم فى التصوف فكان من هذا في جملته ما احدث أجل وأعظم أثر فى رقى الافكار الاسلامية من هذه الوجهة الدينية وتهذيب النفوس وتطهير الاعراق بالوقوف عند الحدود العملية التي هى محل الفائدة وبيت القصيد بل وروح الشرائع السماوية والارضية وكل الآداب العملية .

واذا انتقلنا من هذه الدائرة الدينية أو الشرعية الى الدائرة العلمية العقلية البحتة ألفينا الفلاسفة الاسلاميين وأرباب العلوم العظيمة من المؤمنين كالطب والكيميا والفلك والطبيعيات والرياضيات والتاريخ والجغرافيه والزراعة الى غير ذلك من العلوم

والفنون الكثيرة وذكرنا بالفخر العظيم أسماء كل من الكندى وابن سيناء وابن رشد والفارابى وابن باجة والرازي الطبيب وأبى بكر بن الطفيل وجابر بن حيان وابن البيطار الكيماوى والبيرونى الفلكي والقزويني وابن محلى الموصلى وابن فلوس الماردينى وابن الهيثم والكرجي ونصير الدين الطوسى وابن مسكويه وابى حيان التوحيدى

وابن اسحاق والمسعودى والطبرى وابن الاثير وابن خلدون وأبى الفرج الملطى وأبى الفداء وابن سعدوابن عساكر وابن خلكان والواقدى الخ

والاصطخرى والمقدسي وابن حوقل وابن خرداذبه والادريسي والهمذاني وياقوت الحموي وابن بطوطه وغيرهم كثيرون جداً اسلاميون وغير اسلاميين عرب أم أعاجم ممن جمعتهم تلك الجامعة وممن سبقت أيامهم أو تأخرت عصورهم وبرّزوا في فروع العلوم البشرية وهذه المعارف الانسانية فكانوا نعم الواسطة في توسيع نطاق المعلومات البشرية وتهذيبها وتوصيلها هكذا الى أبناء القرون المتأخرة على أحسن حال مرضي بقدر حالهم حتى لقد يعترف لهم الآن في الغرب — والفضل

يعرفه ذووه – بأن جملة مماظن من المكتشفات والآراء العلمية الحديثة جديداً كان للعرب فيه القدح المعلى من قبل

واذا خرجنا من هذه الدائرة أيضاً الى تلك الدائرة العظيمة من الادب العربى من اللغة والشعر والمحاضرات والموسيقى أوالغناء الخ رأينا عجباً وشيئاً لايحصى عدداً فلقد كان لكل دولة فحولها فى الادب والشعر والخطابة واللغة ولامكننا أن نذكر بأجل الفخر من بين الاسماء الكثيرة جداً أسماء سيبويه والخليل ابن أحمد والكسائى والمبرد وأبى زيد وابن مالك وابن هشام وابن الحاجب والسكاكى وأبي هلال العسكرى وعبد القادر الجرجاني. وابن منظور وابن سيده والجوهرى والفيروزآبادى والاصمعى والقالى وأبي الفرج وابن عبد ربه الخ

وجرير والفرزدق والاخطل وبشار بن برد وعمر بن أبى ربيعه وأبى العتاهيه وأبى نواس وأبى تمام والبحترى والمتنبى وابن المعتز وأبى العلا المعرى وابن هاني وابن معتوق الخ الخ

وابن سريج ومعبد وطويس وابراهيم المهدي واسحاق الموصلى وابوه ابراهيم وغيرهم كثيرون رجالا ونساء ممن برزوا فى الغناء أو الموسيقى العربية وتلحين الشعر وتوقيعه على آلاتها

والجاحظ وابن المقفع وابن قتيبة وعبد الحميد الكاتب والحريرى والهمذانى والثعالبي وابن نباته والخوارزمي وغيرهم ألوف كثيرة ممن أحيو اللغة العربية الشريفة وآدابها وصانوها بالحفظ والضبط وشرفوها وزانوها بدرر الالفاظ وجواهر المعانى البالغة منتهى البلاغة وغاية الرقة والانسجام لدرجة انا معاشر أبناء هذه الامة العربية نقدر أن نفاخر أية أمة أخرى في هذا الشأن فنفخرها ونفضلها على حد قول الشاعر:

ونحن اذا عدت معد قديمها مكان النواصي من وجوه السوابق

أما من جهة الصناعات اليدوية فقد كان لاهل الاسلام فيها أجل الآثار وأعظم الايادى بحسب ما وسعته مقدرة عصورهم ومهارة أيدى صناعهم وأرباب فنونهم . فمن حيث البناء فهذه آثاره القديمة فى جميع البلدان التي غشيها الاسلام واهتدت بهداه من المساجد والقصور والاضرحة والمدارس والمستشفيات والسقايات (السبل) وماحوى الكثير الشهير منها من نقوش جميلة وزخارف صناعية دقيقة كلها ناطقة شاهدة بما كان لايدى صناعها من المهارة وترقى الاذواق. ومن جهة الصناعات الاخرى كنسيج الاقمشة اللطيفة وعمل الاواني

وصناعة التطعيم الدقيقة ناهيك بما اندثر من الصناعات التى كانت رائجة في العصور القديمة الاسلامية برواج سوقها مما قد يرى له بعض الذكر في بطون الكتب والاسفار التاريخية ونحوها فهذه وتلك كلها مما يدل أيضاً على انه قد كان لاهل الاسلام الباع الطولى والايادى البيضاء فى ضروب كثيرة من الصناعات اليدوية فضلا عن التجارات العظيمة ويدل بالتالى على ان الاسلام لم يمنع أهله الرقي وان شئت فقل العمل الحيوى والاشتغال بجميع أشياء الحياة العلمية والعملية

ولقائل أن يقول اذا كان الاسلام قد وسع لاهله في دائرة العلم والمعرفة ولم يضيق عليهم فى شيء من أشياء الحياة العملية النطاق فلماذا اذاً قد تأخروا ؟ ولما ذا سبقوا من غيرهم براحل ؟ بل لماذا تدل الاحوال على انهم غير مكترثين ولا عاملين لما يرقيهم كغيرهم ؟ أقول أن أسباب ذلك كله قد علمت مما تقدم فى بعض الفصول السابقة في أول هذه الرسالة ووسائل الرقى فيه كذلك . على ان لى هنا ملحوظة فى التعويق قديراها كل مستبصر أيضا وهى ان تلك الاحوال التي طرأت على العالم الاسلامى فى السابق من كثرة الاحن والفتن والشدائد قد

أوجبت تضييق نطاق العقل والفكر بلا ذنب على الدين وأصوله فجعلت النفوس لخوفها واضطرابها غير لاجئة الا الى الاشتغال بالامور الدينية البحتة فى الغالب لاعتقادها السلامة من العطب بواسطتها ونوالها العيش على يديها فطرأ الفتور على الهمم شيئاً فشيئاً فاشتغل أهل العلم بالفروع الدينية وبعض الاصول المجردة عن التوسع باستخدام الفكر والنظر المأمور به الا ما كان من شرح أو تحشية الى غير ذلك من القشور اللفظية . وعكف أهل الادب على المحسنات اللفظية وصرف المعانى الى التافه من المديح أو الغزل السمج او السخف والمجون وما أشبه ذلك. واقتصر أهل الصناعات على ما تعلموا فيها بلا تحسين طلبا للعيش فقط دون نظر الى فخر الصناعة وروحها وطلب تقدمها وكثر الميل الى التصوف بين الطبقات للتقرب به والتزلف الى الحكام خوفاً وطمعاً. كل هذا كان داعية الخلط ومزج الاشياء كلها بالدين والاكتفاء منه بظاهر العبادات والزهادات فمن ثم جاء الانحطاط فقيد الفكر وعقل العقل وحبس اللسان وجرت الاقلام بالسفاسف والتافهات وتقهقرت اللغة وانحط الادب والشعر وانقرضت الصناعة وكسدت التجارة وأمحلت الزراعة بكثرة المغارم والكوس

والاحتكارات فهذا هو امر الحق مايظهر جيداً ويبدو لعين كل ناقد مستبصر من العوامل التى أوجبت تأخر المسلمين وتقهقرهم ولا دخل للدين في حد ذاته فى شيء منه بل هو بالضد من ذلك يساعد أهله فى الرقى أيما مساعدة في كل عصر وفي كل مصر .

ولقد سردت ماسردت هنا من أحوال ما كان عليه التمدن الاسلامي في عصوره المتتابعة اجمالا دون تفصيل لتدل أقوامه الحالية لا سيما في بلادنا المصرية اجمالا أيضا ان ديننا الحنيف غير مانعنا الرقى وما عاق بالاذهان من أنه يخالف بنوع ما العلوم العقلية والمعارف الدنيوية لاحظ له فى الغالب من الحقيقة وانه ان كان أسلافنا قد اعتمدوا في تمدنهم الزاهر ورقيهم الباهر بادئ ذى بدء على الاقتباس والاستمداد من العلوم اليونانية والفارسية والهندية ونحوها واستفادوا كذلك من صناعات تلك الاقوام العملية فهل يكون علينا نحن من حرج فى الاقتداء بهم مع معاصرينا من الامم الغربية الراقية عنا ونحن بأحوالنا التى خلفتها لنا عصور الانحطاط وبالتالى جلبناها على أنفسنا بأيدينا احوج الى ذلك الرقى منهم حتي نسعد فى مناهج الحياة الصحيحة ولا يرمي مع ذلك ديننا القويم ظلما وزوراً بوصمة عار انه المسبب لتأخرنا؟

١٥

﴿ضرورة الموازنة بين عوامل الرقى﴾

لزوم الشمول فى عوامل الرقي — أهم المشروط من ذلك — مسئلة النسل والذرية — الثروة وتعزيز الاموال — سوء مغبة اغفال العلوم والمعارف — اعمال البر والاحسان شفقة على بني الانسان — أحسن نظام فى الحكومات

اذا كان الارتقاء في أمة صحيحاً اى شاملا لكل عناصر حياتها وعوامل رقيها كانت نتيجة ذلك اللازمة السعادة والرفاهية لافراد تلك الهيئة سواء من حيث الغبطة فى العيش أو النمو فى القوى الادبية والطبيعية. اما اذا كان غير شامل لكل عناصر الحياة أى فاقد الموازنة بينها اوكان جانباً منه اقوي من جانب انعكس الحال وطرأ الخلل وظهرت العيوب والمساوى الكثيرة فى أشياء الهيئة.

ولتحقيق هذه الامنية او الامانى في الامم من حيث الشمول في عوامل الرقى شروط أهمها انه يجب على الامة ان تهتم بتكثير عددها الآمر به الدين —تنا كحوا تناسلوا — ثم تعزيز موارد الثروة وتحسين توزيع الاعمال والوظائف فى هيئتها واستجادة تربية ناشئتها وتنظيم اعمال البر والخير لذوى الفاقة

والفقر فيها وأخيراً وجود حكومة نظامية عادلة تدير دفة أمورها
بالعدل والاحسان وتسوس مصالحها بما يعود عليها بالمصلحة .

تلك هي أهم شروط النجاح فى الرقى التى يلزم ان تسعى
فيها الامم والجمعيات البشرية المتمدنة سعيها المتواصل بل وان
ينظم كل فرد من افرادها عمله المادى والادبي بمقتضاها جاعلا
تحقيقها مرمى غايته وهدف سهام عمله كله . والامم المتمدنه
المتأخرة وان وجدت متوفرة لها الوسائل العظيمة لان تكون
احذق من غيرها في هذا السبيل غير انه يجب عليها ان تلاحظ
بالدقة التامة جماعات وافراداً مراعاة التناسب بين عوامل الرقي
أو التمدن اذ فى تقوية احدها والتراخي في غيره اضعاف للكل
من تلك العوامل وبالتالى تأخير للرقى الحقيق واقامة العقبات
والعثرات فى سبيله وبعبارة اخرى ايجاد ما يشوش على الهيئة
ويخيفها فى كيانها بنوع ما وما الازمات المالية والاضطرابات
الاجتماعية الحاصلة في كثير من بلدان العالم المتمدنة الاعظم
شاهد وا كبر دليل على ذلك مما يخاف له كبار الساسة وعقلاء
الامم والشعوب ايما خوف .

فالموازنة والتكافؤ بين عوامل هذا التمدن وتنظيم سيرها

فى امة على قاعدة التناسب والتعادل امر ضرورى جداً للاحتفاظ بها وتقويتها كلها وعدم انفراط عقدها النضيد

فاذا اهملت امة مثلا مسئلة النسل وتكثير الذرية الى درجة توجب نقصان عددها شيئا فشيئا كما هو الحال اليوم فى البلاد الفرنساوية مما لا يدرى عقلاء القوم هناك باية وسيلة يتلافون امره ويداوون دائه يكون نصيبها الخسارة وبعبارة اخرى الاضمحلال والتلاشي على طول المدى لا ينفعها معه ما تكثر من غنى وثروة وما تغزر من علوم ومعارف . واذا افرطت فيها بلا حساب لدرجة قد تفوق ما عندها من ارض تقلها ومادة أو ثروة تعيش منها كما هو الحال فى مثل مصر الآن بصرف النظر عن وفرة ثروة البلاد وجودة تربتها كان نتيجة ذلك مضرة بها ايضاً ضررا بليغاً وفى عبرنا الكثيرة شاهد عدل وبرهان صدق على صدق هذه النظرية .

واذا اهملت الامة العمل لتنزير ثروتها وتكثير خيراتها على نسبة حالها من الترقي أو العدد كان ذلك داعية اكبر المضار واعظم الشرور كذلك اذ اى فائدة ترجى من تكثير النسل أو بسط رواق العلم ورواج سوق المعارف وغزارتها فى العقول

والافهام اذا لم يكن للامة ثم ثروة مادية عظيمة ورؤس اموال متجمعة جسيمة تحفظ بها كيانها الحقيقي الذاتي وتجري بواسطتها اعمالها وتدير دولاب اشغالها فتنعم بذلك بالا وتقر عيناً وليس المقصود بذلك فقط ما هو ضروري وكالاس له من سعي الافراد في طلب الرزق الضروري والتماس اسباب العيش الفردي بل المراد على الاخص ماتراه أو تسمع بهمن تلك الحركات أو الاعمال الاقتصادية العظيمة والمشروعات المالية الجسيمة التي تدير حركاتها وتجري على مقتضى نظاماتها الامم النشيطة والشركات وشركات الشركات الكبيرة بنسبة قابلياتها للاعمال والاشغال في بلادها وغير بلادها على قاعدة حرية التجارة والاعتماد على نفسها فيها بعكس حال تلك الامم المقتصرة على التافه من الاعمال والبسيط من الاشغال الفردية أو المبذرة المبعثرة للاموال فانه مهما عظم حال العلم وكبر شأن الادب الموروث منه والمكتسب وكثر عديد العلماء فيها لا يبوء من هذا شأنه منها (ناهيك اذا كان الجهل رايده لا العلم) الا بالخسار والبوار في ميدان الاعمال وثمراتها المتبادلة .

واذا اغفلت الامة أمر التعليم وذلك الشأن الحيوي من

التربية أو جعلتها في الدرجة الثانية من اعتبارها واهتمامها كان لها من هذا كذلك اعظم المضار واشأم النتائج المؤدية الى تلفها وعدم ترقيها . فالاهتمام بامر العلم والتربية من أهم الشروط والاصول الارتقائية التي يجب مراعاتها بالتكافوء والتناسب مع باقي عوامل الرقي ووسائل التمدن الاخرى في الشعوب والا فالجهل مفسد لكل الاعمال وسوء التربية وانحطاط الاخلاق الناجم عن ذلك مبطل لجميع المساعي الحميدة المشكورة معطل لكافة الاعمال الجليلة والفعال الموفقة الجميلة فما تنفقه الامة من الاموال في تعلمها بجميع الوسائل العصرية وتهذيب اولادها وناشئتها بواسطة المكاتب والمدارس سواء على جانب اموال الامة العمومية بواسطة حكومتها أو الخصوصية من جهة الافراد والجمعيات يعده علماء الاقتصاد من اجل عوامل الثروة ورؤس المال العاملة في حياة الامة لا مباشرة ولكن باعظم الواسطة واجل الوسائل .

واذا اغفلت الامة شأن اعمال البر والاحسان في مجتمعها بحسب افضل طرقه سواء حبا بخير الانسانية أو الجامعة القومية أو تقربا الى الله تعالى دينيا عطل ذلك ايضاً من رقيها لان الفقر

والبؤس من ملازمات الهيآت المتمدنة بل من مشوشات احوالها غالبا للاسباب الكثيرة الاجتماعية التى تقتضيها حال الجمعيات المتحضرة مما قد تجنيها الايدى على انفسها أو تسوقها الحظوظ للوقوع فيها ولقد حثت الاديان على الصدقة واوجبت الشريعة الاسلامية فوق ذلك زكاة الاموال لهذا القصد الجميل من سد هذه الخلة في الجمعية البشريه فتصرف الصدقات وزكاة الاموال الى الفقراء كما وحتمت الواجبات الانسانيـة العمل لمساعدة المحتاجين والمعوزين باساليب عصرية جميلة .

فلكى تنال الهيآت الاجتماعية السلامة وتأمن التشويش والارتباك في سير رقيها وانتظام حالها لا بد لها من ترتيب اعمال البر ومديد المساعدة والرفد من الاغنياء والموسرين مرضاة للضمير والوجدان الدينى أو الانسانى واراحة للهيئة وسدا للثلمات التى تتأثر منها في الرقي وعرقلة امره فى مجموع الامة مما يفسد كيانها بسبب حصول التخاذل والتفكك في الروابط بين عموم افرادها ويثير الاحقاد والضغن من عدم رحمة غنيها فقيرها وواجدها معدمها .

واعمال البر العصريه — ان كان يصح تسميتها بهذا —

تفضل فى الصورة طرقه القديمة من حيث التعاون فيه على اساليب شتى لانشاء مثل المستشفيات والملاجئ والمدارس المجانية ومساعدة المحتاجين والمعوزين ثم ايجاد الاعمال والتشويق اليها لدى الفقراء وتسهيل وسائل العيش عليهم وحثهم وترغيبهم فى توفير الدرهم المكسوب الى اشباه ذلك مما غايته الحميدة مزدوجة الفائدة من حيث مرضاة الخالق تعالى باداء الحقوق الدينية والواجبات الانسانية على أحسن صفة وشكل واراحة الهيئة وطبقاتها كلها مما يشوش عليها ويعرقل مساعيها ثم احياء كثير من النفوس التعيسة وانتشالها من وهدة الجهل أو الكسل وحب البطالة الا اذا كانت غير صالحة للعمل ولا قدرة لها على السعي من شيخوخه أو زمانة أو ما أشبه ذلك فيكون لها حينئذ فى الملاجىء الخيرية أو المستشفيات أو الجميات خير ملجأ ومأوى تأوى اليه ويقيها شر الفاقة أو المرض على حساب أهل الخير من الامة وخدمة الانسانية والهيئة الاجتماعية

والامة التى تحظى تبعاً لاحوالها بحكومة نظامية دستورية عادلة تسعد فى كل شؤونها لسهر حكومتها على مصالحها بما هنالك من الضمان الحقيقي بعكس الامة التى تمنى بحكومة لاتناسب

بحالها أحوال الرقى أى درجة التوازن مع باقى عوامله الاخرى كأن تكون صلفة جاهلة أو ظالمة غاشمة استبدادية الاحكام مطلقة التصرفات لا يعمل عمالها بالمسؤولية الملقاة على عاتقهم الا بقدر ما يعمل الرجل المطلق التصرف أو العامل الذى لا ارادة له أولا مسؤولية عليه أمام المصلحة العمومية والهيئة النيابية فهذه الحكومة قل أن ترتقى معها حال أمة أو يسعد على يديها شعب كما يرشد اليه التاريخ ولو نظر الانسان بعين التأمل الدقيق لرأى ان مصائب الحكومات الشرقية القديمة وسقوطها بالسرعة الواحدة أثر الاخرى فضلا عما جرت على الشعوب معها من الشرور والمساوىء انما سببه الهيئة الاستبدادية والسلطة المطلقة مما قد يخالف نفس مغزى الشرائع المنزلة او ما قد اتصف به الكثير من الملوك المتقدمين والمتأخرين من التقوى والرحمة ومحبة اقامة العدل بين الرعية ولنا فى أحوال المملكة الروسية واختلالها العظيم بالرغم عن اتصاف القيصر الحالى مع ذلك بالحب لشعبه وبلاده ورغبته الشديدة فى استصلاح حال ما آتاه الله من الملك الواسع اعظم برهان على صدق هذه النظرية [١]

(١) كتب هذا الفصل فى وقت حوادث روسيا فى العام الماضى وقبل أن يتحقق أمر الدستور فيها بانشاء مجلس (الدوما)

نظير الحكومات كما دلت عليه تجارب الامم الراقية انما هو التقيد بالدستور وتوزيع المسؤولية على الهيئة الوزارية بواسطة المجالس النيابيه بهذا يطمئن بال الراعي وتصلح حقيقة احوال الرعية . ولعل حكومتنا المصرية بالغة هذا الشأو على طول المدى بفضل المساعي الاصلاحية المصرية فى ظل الساحة الكريمه الخديوية العباسية حرسها الله فتستبدل الهيئة الشوروية الحالية بهيئة نيابية متى ما برهنت الايام على ما يطلب من الكفاءة في هيئتنا الحالية وان اليوم الذى تحقق فيه هذه الامنية ليكون يوم العيد الاكبر عند الامة المصرية بأجمعها يسجل التاريخ فخره العظيم لسمو مليك البلاد ومساعديه من رجال الاصلاح ماجاء بيده وأتى يوم موسمه على كر الدهور ومرور الاعوام .

هذا مجمل ما يجب ان تكون عليه عوامل الرقى المصرى فى الامم المتمدنة مراعياً فيها بالدقة التناسب والتوازن بين هاتيك العوامل لانه اذا كان اغفال أمرها كلها اوجلها هو شأن الامم المتوحشة أو المستغرقة في البداوة فان تقوية البعض واهمال البعض الآخر منها مشوش للرقى في جملته بل مفرط لعقده النضيد أحياناً فيجب أن يسمى لها كلها سعيها المشكور

المتواصل بالتناسب والتكافؤ تحت كنف النظام العادل وسهر الحكومة العاملة بالحق حتى لا يترجح عامل على آخر منها بذلك تسير تلك العوامل متكافئة متضامنة فتنتج أحسن النتائج الارتقائية وتثمر اشهى الثمار التمدنية .

١٦

﴿ على جناح الطائر . خلاصة ﴾

عودة الى أسباب الفتور — الاقليم والدين أيضاً — كيف فاز الغرب وانحط الشرق — الاضطرار الى الاستمداد من التمدن الحالى — القوم لا يفرغ لهم جديد — التوفيق بين عنصرى الرقي الدين والعلم — لا على قاعدة الخلط والمزج

لقد تبين لنا من هذا البحث القليل ان الامة المصرية الحاضرة تتركب من عناصر قابلة للارتقاء ككل الامم الشرقية العريقة المجد فى التاريخ وان الاسباب العظيمة التى حطت بهذه البلاد وغيرها من بلاد المشرق وفترت لها همم اهلها وافسدت عليهم حالهم الادبى والعلمى والمادى ايضاً انما هى كثرة توارد الاحن وطروق الفتن وتوالى فساد الاحكام وتخييم الجهل ورداءة التربية .

أما الاقليم فقد قلت انه لا دخل له الا بمقدار ماله من الشأن

الطبيعى والمادى فى التميز بين شعب وشعب من الشعوب
المتمدنة في العوائد والاخلاق واطوار الاعمال المعاشية ولا دخل
له البتة فى الاسباب الادبية التى رفعت المصريين أو الشرقيين
عموماً قديماً الى السماك الاعزل مجدا ثم خفضت بهم بعد ذلك
الى الحضيض شيئا فشيئا فصفوة القول ان الاقليم لا دخل له
البتة هنا بل هو بالضد من ذلك ربما كان بأحوال مصر الطبيعية
الزراعية وتوالى فيضان النيل سنويا وانبساطه الدوري على
اراضيها يجعل سكان هذا الوادى من اكثر اهل الارض همة
ونشاطا في العمل بحسب الظروف المحدقه والاعمال المطلوبه منهم
كذلك دين هذه الامة فان ما يقال عن اقليمها ومناخها
ليقال ايضاً عن دينها القويم وعقيدتها الحقة البيضاء لانه لما
كان مبنياً على اسمى المبادى الاعتقادية واجمل الآداب العملية
والاجتماعية لاجرم كان ابعد ما يكون تنزها وترفعاً عن فرية
الحاق التأخير أو ايجاد الانحطاط والتقصير في نفوس المعتنقين
له والمتمسكين به بل هو لعمر الحق وبشهادة الشهود من الغرب
نفسه يرمى بالضد من ذلك الى وجوب الترقى علما وعملا في كل
الشؤون والاحوال الدنيوية والاخروية بأصوله العامة الكريمه

ومبادئه السامية وانما الذي يرى فيه مخالفا لهذا السنن العظيم في
اطراد الارتقاء او انهاج نهج العمل الحق امرر قد طرأت كما
تقدم عليه فنشت الى جنبه ملصقة به ملتفة حول اصوله تبعاً
للظروف وبحكم الاغراض والمناسبات العصرية والاعمال البشرية
التي مرت على اهله بموادها فجعلته يظهر بالمظهر غير اللائق
بمقامه في هذا الوجود بحسب سير اهله

وزد على ذلك انه لوكان الدين الاسلامي يمنع اهله الرقي
ويباعد بهم عن المدنية في كل عصر وفي كل مصر وبالتالي لوكان
يعطل عمل العقل ويحجر على الفكر او يرمي الى الجبر المحض كما
يقول اعدائه لما كان ذلك التمدن الباهر الذي قام به اهل الاسلام
قديماً في بقاع الارض التي امتد عليها رواق سلطتهم كما تقدم
في فصله سواء في العلوم والمعارف او في الاداب والفضائل او
في الفنون والصنائع والتجارة فالدين الاسلامي اذاً ما منع اهله
الرقي ولا هو بمانعهم اياه اذا سعوا اليه سعيه الجميل الرشيد .

هذا السعي الذي قد وفاه حقه اسلافنا الاول في ادوار
ازدهاء دولهم بقدر ماسمحت لهم به الظروف والوسائط ففازوا
بالرقي العظيم حقبة من الدهر كان لهم فيها سيادة العالم في العلم

والمدنية والسلطة القوية الى ان غلبوا على امرهم بالاحن اللاحقة بهم منهم فيهم فانحطوا فى شؤونهم من هذا القبيل رويداً رويداً بينما كان الغرب يتملق في اثناء ذلك ويمسك باهداب تلك الاسباب العظيمه مجداً مجتهداً استمداداً واستنباطا وتغييراً وتبديلا فى اصول العلوم وفروع المعارف والفنون والصنائع بل والآراء الفلسفية والادبية والاساليب النظامية الاجتماعية الى اشباه ذلك الى ان رجحت كفته تماماً وصار حاله ازاء الشرق المتخبط فى شأنه المتعثر في أذياله حال السيد المطاع بل حال الآمر الناهى فى شؤون هذا العالم كله

والامه المصرية وبعبارة اخرى كل الامم الشرقية الحالية التي اتيح لها بحكم الضرورة الارتباطيه ان تعتمد فى احوالها على الاستمداد من هذا التمدن المصرى منذ اوائل القرن الماضي تقريباً كما تقدم فى فصله بدأت تسير فيه منذ ذلك العهد بالتعثر تبعاً لما كان يلحقها من المؤثرات والعوامل القديمة والحديثة الى ان اضحت اليوم بحكم التأثير الكلى من الخلطة وتبادل المصلحة مضطرة لان تجاري الغرب فى كل شؤونه الارتقائية على مبدأ الاخذ بالنافع وترك غير النافع او الضار للسلامة بالحياة كما تقدم

في فصل «مكاننا من الرقي الحديث » وغيره من الفصول لكي
تختط لها طريقاً وسطاً في الحياة العصرية ومركزا جميلا بين
هاتيك الامم والاقوام النشيطة المعاصرة المعاشرة لنا

وسبيل هذا الطريق ميسر مفتوح لها سواء في العلوم
والمعارف او في الصناعة والتجارة او في الادب العصري
والموروث مما هو مفخرة الامم المتمدنة ثم الفنون الجميلة
الاخرى واخيرا النظام الاجتماعى واساليبه الحديثه واستعمار
السودان تلك البلاد الغنية التربة التي هي من أهم أعضاء بلادنا
وقد وفيت جملة ذلك حقه من البحث بقدر الطاقة في مواضعها
من الفصول المتقدمة

فالاقتداء بالغرب والتقليد او الاخذ بالمفيد عنده وفاق
ما اتيح للقوم من المبادى العلمية والاصول العملية في كل
الشؤون الارتقائية والامور التمدنية مما لايخالف جوهر الدين
ولا يصادم أصلا من أصوله من أفضل ما يجب أن يختار وتسمى
فيه الهمم وتحج اليه النفوس الاسلامية تحرياً وتحصيلا لسعادة
الحياة في الدارين .

لكن من الغريب المدهش اننا لم نزل في الجملة غير شاعرين

بتلك الحاجة وبالتالي غير عاملين بالجد والصواب في هذا السبيل بل جل اهتمامنا منصرف الى مالا يغني ولا يسمن من التقليد السطحي فيما ضرره أكبر من نفعه من العوائد النافهة والمظاهر الكاذبة وقشور هذا التمدن أكثر من سعينا للحظوة بالجوهر من شأنه حتي أضحينا وحالنا حالنا في فساد الاخلاق وتضييع تالد المال وعدم السعي كثيرنا في جنى قطوف الطريف الدانية منه بالمقدار المناسب لمقتضيات الاحوال .

وزد على ذلك اكتفاء أهل العلم والمعرفة وذوي العقول الكبيرة فينا بالامور العلمية القديمة ومؤلفاتها العتيقة مع ان القوم في الغرب لايفرغ لهم جديد من التاليف والتصانيف ولا تفتر لهم همة في تقريب الموارد وتسهيل المناهل وتبسيط العلم وأساليبه التعليمية فضلا عن قوة الاستنباط وامتلاك ناصية الاختراع مما وسع نطاق المعارف البشرية وسهل حزون الحياة الانسانية وأفاد الفنون والصناعات والتجارات وكل الاعمال الحيوية الفوائد الجلى مما نرى آثاره بادية بين ظهرانينا.

ونحن وان كنا غير بالغين ذلك الشأو العالي جداً في حالتنا الراهنة لاعتبارات كثيرة الا أنه يجب علينا أن نجد على قدر

طاقتنا ونجتهد فى العمل بمثل ماعملوا لانهم اذا كانوا قدأطرحوا فى جهادهم هذا القديم في العلم والفلسفة والفنون والاساليب والآراء المدرسية العتيقة ولبسوا غيرها جديداً قشيباً فذلك انما فعلوه لا تحقيراً لشأنها أو انتباذاً لما بنوا عليه من فوائد أصولها بل لانهم وجدوا في هذا التغيير والتبديل مع حفظ الاصول أقصر الطرق وأمتن الوسائل لبلوغ الرقى وبالتالى لنوال مانالوا من سعادة الحياة .

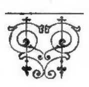
فنحن اذا أردنا أن نرقى مثلهم وبالتالى ننال نصيبنا من سعادة الحياة على قدر مايناسب رغائبنا الدنيوية يجب أن نعمل عملهم فى هذا الصدد اختيارا للافضل وعملا بالاسهل فاذا كانت مؤلفاتنا العتيقة وفلسفةفلاسفتنا القديمة المبنيةعلى فلسفة اليونان والهند وفارس قد خدمت الاسلام قديماً وصلحت لتلك العصور الماضية وصارت الآن تلقاء تلك التغيرات التي طرأت على العالم أجمع وكان مصدرها الغرب النشيط العامل النافذ الكلمة والفكر اليوم في جميع أقطار المعمور غير صالحة بنوع ما لابناء الشرق الحديث بالنظر لعظم الاحتكاك وماتتطلبه الموازنة الفكرية بين الطرفين تلقائه من التعادل في القوة

والتكافؤ فى المعرفة ليحصل الرقى الصحيح بالنسبة الينا ويعلو كعبنا فيه فمن ثم تبدو الشواهد وتظهر الحاجة الشديدة في وجوب التشمير عن ساعد الجد فى التأليف والتصنيف بحسب الاساليب الحديثة وتحرى أنفع العلوم وأفيد المعارف العصرية وتكييف مالنا منها من قديم بالكيفيات العصرية حتى تستفيد الامة وتنتشل من جهالاتها وضلالاتها. وزد على ذلك أن فى علوم المتأخرين ومعارفهم وآرائهم مايفيد الاسلام ويقيم حجته على أمتن حجة وأجل برهان فضلا عن ان هاته العلوم وتلك المعارف العظيمة سواء كانت علوماً أدبية واجتماعية أو علوماً طبيعية ورياضية ومابنى عليها وطبق من الفروع العملية في الصناعات والتنظيمات والتأسيسات الاجتماعية والاقتصادية ما وضعت باشكالها وصورها الحديثة أي أساليبها العملية خصوصاً الالنفع بنى الانسان على جهة العموم فى أى زمان ومكان فهي والمكتشفات الطبية والمخترعات البشرية سيان فى هذا الصدد وبما ان الدين ما وضع كذلك من الله تعالى الالخير البشر كافهم ورحمة للعالمين لهذا قد يسهل التوفيق بينهما على أحسن حال وأفضل قاعدة كما صنع متقدمينا أيام ازدهاء دولة الاسلام.

وليس المراد بالتوفيق العصرى بين ذينك العاملين الرئيسين فى اصلاح حال البشر عامل الدين وعامل العلم والمعرفة مايتبادر الى بعض الاذهان من الخلط والمزج بينهما كما صنعت عصور الانحطاط فيهما للاسباب التى بسطت فيما سبق انما المراد هو مد كل فى التربية العصرية خصوصاً الدنيوية والدينية بالقدر المناسب المحتاج اليه من الآخر بحسب المناسبات المختلفة دون مزج بينهما فيما لا علاقة لاحدهما بالآخر البتة. فهذا الفصل هو الذي رقى القوم بنوع ما فى الغرب ونفى أسباب الارتباك والتشويش كما انتفى ذلك عنهم من الجهة العملية بالفصل بين السلطتين الزمنية والدينية. ونحن وان تكن شؤوننا بهذا الصدد غير شؤونهم وأحوالنا فيها أقل من أحوالهم كثيراً الا ان مما يجب أن نلاحظه هو أن لا نخلط كثيرا بين ذينك العاملين الا بالمقدار اللازم المشروط للنجاح الدنيوي ناهيك أن التضلع وسعة الباع فى العلوم العصرية والمعارف الدنيوية قد يفيد كثيرا كما دلت عليه التجارب في التربية الدينيه المحضة قوة حجة وعظم بصارة فى هدى الحنيفية البيضاء المحجة

وهل ينبت الخطى الا وشجية وتغرس الا فى منابتها النخل

فهرس



صفحة	سطر	خطأ	صواب
٦	٣	قرطيه	قرطبة
١٣	١٢	الشخوخة	الشيخوخة
١٤	١٢	الحمود	الخمود
١٥	١٦	الغريبه	الغربية
١٧	١٦	لا نصيب له في	لا نصيب له من
٠٠	٠٠	الا مخيلة	الا في مخيلة
٢٣	٥	بالفنس	بالنفس
٣٠	٢	متوحرة	متحورة
٣٩	٢	بالدجلة	بالدجاجلة
٥٢	١١	فأتيهم	فأيتهم
٦٨	٩	المشاريع	المشروعات
٧٥	٣	الاختلاق	الاخلاق
٨٤	١	التشخيصة	التشخيصية
١٢٦	١٤	عاملا	عامل
١٣٩	١٠	جانباً	جانب
١٥٠	١٠	اعدائه	اعداؤه
١٥٥	١٧	متقدمينا	متقدمونا

(تنبيه) وقد وقعت بعض تحريفات وتصحيفات مطبعية أخرى لا تخفى على القارئ فلهذا أهملت تصحيحها